الباب الثانى

فى الجسم الإنسانى

٦

خدعوك فقالوا :

إن الإنسان مخلوق كامل !

ليس أبعد من جسم الكائن البشرى عن الكمال . .

فى كل عام يموت ألوف من الأجنة فى بطون أمهاتهم ، ويموت ألوف من الأطفال فى المهد ، لأن قوانين النمو ليست بلا أخطاء . . .

ادخل أى متحف من متاحف الطب تجد مئات من هذه الأخطاء على شكل مسوخ لم يستقم تكوينها مع الحياة .

وادخل أى غرفة للتشريح تجد أعضاء موضوعة فى غير موضعها ، أو زوائد فى جسم ما لا يوجد لها أشباه فى سواه .

بل افتح عينيك وأنت سائر تصادف مئات من العيوب البدنية فى الطريق . . . هذا « أعلم » وهذا « أشرم » ، وهذا له أصبع سادسة فى يده أو قدمه ، وكلها هى وأمثالها أخطاء فى التكوين .

وليست ظاهرة التوائم إلا خطأ من هذه الأخطاء ، فإن القانون العام أن تبيض الأنثى فى كل شهر من شهور خصبها بيضة واحدة ، يلقحها حيوان منوى واحد ، فيكون إنساناً ، فإذا باضت الأنثى أكثر من بويضة ، ومنيت كلها بالإخصاب ، انتهت كل بويضة إلى جنين .

وإذا باضت بويضة واحدة أخصبها أكثر من حيوان منوى واحد ، كانت النتيجة التوائم الأشباه . .

وتحت هذا الخطأ العام قد توجه أخطاء جزئية ، فإن التوءمين بدلا من أن يولدا منفصلين ، يولدان وبينهما وشيجة من اللحم والدم ، والاشتراك فى بعض الأنسجة أو الأحشاء . .

وقد يذهب هذا الخطأ إلى آخر مداه فيولد أحد التوءمين حيًّا ، يحمل فى عضو من أعضائه قبراً يثوى فيه رفات أخيه ! . . وثمة أمثلة عديدة لمثل هؤلاء التوائم يكتشفها الطبيب على شكل أورام فى جسم التوءم الحى تسمى أورام « التيراتوما » وقد تستحيل هذه الأورام إلى سرطان من أخبث أنواع السرطان ينتقم فيها قابيل الميت من هابيل الحى ، لحرمانه إياه من الحياة . .

وكثيراً ما تستأصل هذه الأورام دفعاً لشرها فتوجد فيها عجائب ، فمن أظافر بشرية ، إلى أصابع ، إلى يد كاملة ، إلى فك وافى الأسنان إلى خصلة من الشعر ، إلى عظمة من هنا أو هناك ، إلى قلب لم يعرف الخفقان ، إلى عضو كامل من أعضاء جسم الإنسان ! ! . .

وما أكثر النكت التى يسخر فيها الخالق من حقارة المخلوق ! ! . .

٧

خدعوك فقالوا :

إن الإنسان تحدر من أصلاب القرود

إن تشارلس داروين — الوالد الروحى لعلم أصل الأنواع — لم يقل قط « إن أصل الإنسان قرد » ، ولكن خصومه — وكانوا فى وقته كثيرين — هم الذين وجهوا إليه هذا الاتهام جهلا بتعاليمه ونكاية فيه . وكان أشد خصوم داروين لجاجة فى خصومته واحداً من كبار رجال الإكليروس فى زمنه هو المطران ويلبرفورس ، وكان خطيباً لايشق له غبار وإن كانت فصاحته كما وصفها أحد معاصريه ، من نوع فصاحة الطبل الأجوف ، القليل الجدوى والعالى الطنين . انتهز هذا المطران فرصة اجتماع أقامته الجمعية البريطانية سنة ١٨٦٠ فى أكسفورد لتستمع لمحاضرة عالم أمريكى عن « التطور العقلى لأوربا على ضوء نظرية داروين » ، فاختار أن يجعل هذا الاجتماع ميداناً لمعركته الكبرى مع هذه النظرية ومن كسبت من أنصار .

وظهر منذ البداية أن المستمعين السبعمائة الذين اكتظوا فى قاعة الاجتماع ، ومن بينهم رهط كبير من رجال الإكليروس ، وعدد طيب من الطلاب ومن نساء المجتمع ، إنما جاءوا للاستماع للمطران وللاشتراك فى تشييع جنازة داروين ، الذى وعد المطران أن « يبحث

نظريته من جذورها ، وأن يمحو اسمه من قائمة الوجود . ولم يكن داروين نفسه موجوداً ، فقد كان رجلا معتل الصحة على الدوام « برغم أنه عاش ٧٤ سنة ، من ١٨٠٨ إلى ١٨٨٢ » ، وكان يعاف المجتمعات إلا أن صديقه وزميله وتلميذه الدكتور هكسلى كان هناك .

وبعد نصف ساعة من الكلام الفصيح والمغازلات المتبادلة بين جمهور المستمعين والمطران الخطيب ، الذى كان مجلسه على المنصة بين الضيف الأمريكى وبين رئيس الاجتماع اختتم المطران هجومه قائلا فى نغمة هادئة ، وابتسامة ساخرة : « إن نظرية التطور نظرية لا أصل لها ولا أساس ، فالصقر لم يكن إلا صقراً منذ خلق ، والحمامة لم تكن إلا حمامة منذ بدأ الله الأكوان » .

ثم التفت إلى هكسلى قائلا وفى عينيه نظرة زاخرة بالتهكم ، وبين شفتيه ابتسامة كبيرة مصطبغة بلذع السياط : « لكم كنت أود أن أعرف منك ياسيدى لأى جدّيك أنت مدين بأصلك الذى تقول إنه من أصلاب القرود ! .. » فأجاب هكسلى : « إن النظرية التى يشير إليها المتكلم تدور حول مهبط الإنسان والقرد من أصل مشترك ، خلال آلاف الأجيال . ومع ذلك فما دام السؤال الموجه إلىّ عاطفيًّا ، وليس بحاجة إلى البحث العلمى الهادئ الرزين ، فليسمح لى السائل أن أقول : إنى لو خيرت بين القرد ذلك الحيوان الطيب ، المسكين المهرج ، القليل الذكاء ، وبين الإنسان حين يؤتى حظًّا عظيمًا من المقدرة والمواهب ، والجلال السامى على كل جلال ، فيأبى إلا أن يستغل ذلك كله فى تحقير الباحثين عن الحقيقة — لو خيرت بينهما أيهما أختار ليكون

جدى ، لترددت طويلا جداً فى أى الاثنين أختار » !

ويقول هكسلى بعد ذلك فى مذكراته إن النظرية الجديدة لم تتحطم يومئذ تحت سنابك السخرية اللاذعة ، ولكن قدر لها أن تجد من يستمع لها ، وأن ينتشر صداها فى الآفاق ومن الغريب أن أحداً ما من علماء التطور لم يقل قط إن الإنسان تحدر من أصلاب القرود . وداروين نفسه يقول بصريح العبارة فى كتابه « مهبط الإنسان » إننا لا ينبغى أن نقع فى خطأ الافتراض بأن الأصل الذى نشأ منه الإنسان يشبه فى كثير أو قليل أياً من النسانيس أو القرود التى تعيش الآن وغاية ما يقوله داروين ويتفق فيه مع سواه من علماء أصل الأنواع أن القرود العليا والإنسان تحدرت من أصل واحد . لم يعرف بالتأكيد حتى الآن . ولا بد أن يكون هذا الأصل مرتبطاً بالطين الذى هو أصل كل الأحياء .

ولقد خلص داروين فى كتابه « مهبط الإنسان » إلى أن الإنسان ليس مديناً بسموه على سائر الحيوان . إلى خاصية واحدة من خصائصه ، أو سجية من سجاياه ، وإنما الفضل فى ذلك لعدد كبير من هذه الخصائص والسجايا . منها اعتدال القامة ، ومنها اليدان ومرانهما الباهر على العمل الدقيق ، ومنها عقله الذى يسّر له اكتشاف الآلات واللغات . ولقد عدّ داروين عقل الإنسان أثراً من آثار تكيفه للبيئة ، وسلاحاً من أسلحة النضال الذى تحتم عليه أن يخوضه فى معركة البقاء .

وعزا داروين الاختيار الجنسى على تطاول الأحقاب إلى أن المرأة أصبحت أحن من الرجل ، وأكثر مودة ، وأشد إيثاراً ، وأن الرجل أصبح أشجع منها وأقوى ، وأصل ذكاء .

٨

خدعوك فقالوا :

إن العقل السليم فى الجسم السليم

ليس العقل السليم دائماً فى الجسم السليم . . . فقد يعتل الجسم أحياناً ، ويظل العقل يتألق تألق النجوم ... وقد يعتل العقل أحياناً ، وترى جسم صاحبه أقوى وأصلب من أجسام البغال .

وفى التاريخ أمثلة عديدة لمئات من أصحاب العلل والآفات البدنية ، قرروا أن يقهروا متاعبهم ، وقهروها فعلا ، وقاموا بأعمال مجيدة فى الفن والعلم وخدمة البشر . . ولعل كثيراً منهم ، كانت العلة الكامنة فى أجسادهم ، وشعورهم بها ، هى حافزهم إلى المجد ، ومهمازهم إلى قهر المتاعب واقتحام المعالى بشجاعة وإقدام . . .

وفى هذا التاريخ كذلك أفراد يعدون بالملايين سلمت أجسامهم من الأمراض والآفات ، وامتلأت رؤوسهم هواء . .

ديون الآثام

إن المرض البدنى قد يؤدى حقيقة إلى اختلال ميزان العقل ، ويكفى أن تراقب مصدوعاً فى معاملته للناس ، أو ممعوداً فى بغضه للحياة ، حتى تلمس مدى تأثير العلل البدنية فى الاتزان العقلى والانسجام مع الحياة .

بيد أن العكس غير صحيح على الدوام ، فالجسم السليم لا يمكن بأى حال أن يكون ضماناً كاملا لعقل سليم ، وكثيراً ما تحطمت عقول وانهارت أعصاب ، دون أن تصحب هذا الانهيار أية علامة من علامات المرض البدنى الخطير . . .

وأكثر من نصف مرضى كل طبيب ، ممن يعانون أمراض القلب والكبد والمعدة والأمعاء — وبالأحرى من يخيل لهم ذلك — ليس فى قلوبهم ولا فى معداتهم ولا أمعائهم شىء ، وإنما تثوى علتهم فى العقل والأعصاب . . . إنهم ضحايا اختلال عاطفى نشأ من صدمات المتاعب والهموم والخوف والحقد والندم ، ومركبات النقص والهوان ، والضمائر المثقلة بديون الآثام !

وقد عرفت علل العقول منذ وجدت البشرية . . . ومثل سائر العلل البدنية . اتهمت فى إحداثها الشياطين التى تسكن الجسم الآدمى ، وتعشش فى رأس المريض . .

قابل للكسر

وكانت وسيلة البشر الوحيدة لطرد هؤلاء الشياطين هى الرقى والتعاويذ ، وثقب الجمجمة حتى يخرج منها الشيطان ، وإغراق المريض بالمليينات والمقيئات لعل الشيطان ينزاح من جسمه مع فضول القىء والإسهال !

ولكننا الآن نعرف أسباباً أخرى لعلل العقل منها الوراثة المسكينة ، والأضرار التى تصيب مخ الجنين قبل ولادته وفى أثناء الولادة ، وبعد

أن يتعرض للحوادث وأمراض الجهاز العصبى فى الحياة .

إن الوراثة تلعب دوراً فى إضعاف العقول ، ولكنه يبدو دوراً أتفه مما يظن الناس فإن كثيراً من المجانين لا يوجد فى أسلافهم مجنون ، وكثيراً من أصحاب العقول الراجحة ينحدرون من أصلاب مجانين رسميين . . وقد يرث المرء من أسلافه جهازاً عصبياً من نوع « قابل للكسر ! » ولكنه لا ينكسر . لأن صاحبه عاش فى هدوء نفسانى ، لم تحدث له كوارث تعرض للكسر هذا الجهاز ! . .

العقل الضرير

وأكثر من الدور الذى تلعبه الوراثة فى الضعف العقلى ، الدور الذى تلعبه الحوادث الطارئة والولادة بالآلات ، ومن أجل ذلك يقوم الآن بعض أنصار الولادة الطبيعية من أطباء النساء بدعوة واسعة النطاق للعودة إلى الولادة الطبيعية ، والتمهيد لها ببعث الثقة فى نفس الأم ، وحمايتها من المخاوف التى يبذرها فى تربة نفسها العجائز والجيران ، وبذلك يقل استعمال الآلات فى الولادة ، ويقل معه الإضرار بمخ الجنين المولود .

وأكثر حالات الضعف العقلى مرجعها إلى البيئة وأثر التربية الأولى فى حياة الطفل ، وتنشئته فى جو تعس يقتل شخصيته ، ويهدم استقلاله . ويتدخل الانسجام بينه وبين أهله وجيرانه ومواطنيه ، ثم الصدمات العصبية العنيفة التى تصادف هذه الشخصيات المنهارة ،

فتركع أمامها ركوع الذعر والضعف واليأس والهوان . .

وأيًّا كان مصدر هذا الضعف العقلى ، فكثيراً ما يحدث ــ و بالأخص فى بداية الضعف ــ أن يكون هذا العقل الضرير فى جسم سليم تماماً وربما صلح للعمل فى مصارعة الثيران . .

فالعقل السليم إذن لا يوجد دائماً فى الجسم السليم !

٩

خدعوك فقالوا :

إن العبقرية لا علاقة لها البتة بوزن الدماغ!

لم أكن ولدت يوم توفى الرسام العظيم « رافاييل » ، ولا يوم قضى نحبه الكاتب الفرنسى الكبير « أناتول فرانس » . وبالتالى فإنى لم أشترك فى كتابة شهادة الوفاة لأى منهما ، كما لم أشترك بطبيعة الحال فى تشريح جثتيهما ، وعلى ذلك فما أتيحت لى أية فرصة اوزن دماغ أى منهما حينما مات . ولا أستطيع تبعاً لذلك أن أجيب بمنتهى الثقة عن سؤال لمواطن يقول فيه : « هل صحيح أن رافاييل الرسام وأناتول فرانس لم يكن وزن دماغ كل منهما يزيد على الكيلو جرام الواحد ؟ وأن العبقرية لا علاقة ألبتة بوزن الدماغ ؟ »

النادر لا حكم له

لعل مما يشبع تطلع المواطن السائل فى هذا الصدد ما قرأته فى كتاب للدكتور الفاضل محمد صبحى غنيمة بعنوان « نظرة فى أعماق الإنسان » وفى مراجع أخرى ، من أن وزن دماغ رفاييل يوم مات كان ١١٦١ جراماً ، وأن وزن دماغ أناتول فرانس كان ١١٧٠ ، ولكن هل ينهض ذلك دليلا على أن العبقرية لا علاقة لها بوزن الدماغ ؟

كلا بالتأكيد !!

فإن هاتين الحالتين من الحالات النادرة ، والنادر لا حكم له . والأكثر شيوعاً أن أدمغة العباقرة تميل إلى الضخامة على الدوام . فني الوقت الذى يزن فيه دماغ الرجل البالغ فى المتوسط ١٤٥٠ جراما ، نجد أن الروائى الروسى الأشهر إيفان تورجنيف مثلا كان وزن دماغه ٢٠١٢ جراما — والعهدة على نفس المراجع — وأن بسمارك السياسى الألمانى الداهية فى القرن التاسع عشر كان دماغه يزن ١٨٠٧ جرامات.. وأن وزن دماغ الفيلسوف الفرنسى « كانت » كان ١٦٠٠ جرام ، وأن الشاعر الألمانى شيللر كان دماغه يزن ١٥٨٠ . وهى أوزان تفوق كلها متوسط وزن الدماغ فى سواد الناس .

ثم إن من المعروف أن الدماغ الذى يقل وزنه عن الكيلو جرام الواحد ، لا يوجد عادة إلا فى المعاتية والبلهاء وضعاف العقول بوجه عام ! !

العبقرية ليست بالرطل

على أن حجم الدماغ فى ذاته قد لا يغنى شيئاً فى حساب العبقرية والنبوغ . وإلا كان الرجل أذكى من المرأة على الدوام ، لأن متوسط وزن دماغه يزيد بعشرة فى المائة على متوسط وزن دماغ المرأة « وسنرى أن ذلك مرده إلى الفرق بين جسمى الاثنين » وهو استنتاج لا محل له لأن كثيراً من النساء يذهبن بأزواجهن إلى البحر ويعدن بهم عطاشى ظامئين !

إنما يتصل بالعبقرية أكثر من وزن الدماغ مسطح قشرته السنجابية

السمراء ، المحتوية على الخلايا العصبية التى تتلقى ملايين الانبعاثات العصبية وترد عليها بما يتراءى لها من ألوان الاستجابات .

ومن المعروف أن هذا المسطح الذى كان ينبغى أن يكون مساوياً لمسطح الجمجمة من الداخل ، أى حوالى ٨٠,٠٠٠ سم ثمانين ألف مليمتر مربع بالتقريب ، يزيد على ذلك ثلاثة أضعاف فيصل إلى ٢٢٠ ألف مليمتر مربع ، وذلك لنمو هذه القشرة الهامة داخل أنسجة الدماغ على شكل تلافيف وأخاديد وشقوق تعطى الدماغ شكله المعروف .

ثم إن سمك هذه القشرة نفسه يلعب دوراً هاماً من هذه الناحية . فإن القشرة إذا سمكت وغلظت زاد فيها عدد الخلايا العصبية المذكورة ، ذات الوظائف الحيوية الهامة ، وذات الأشكال المتعددة ، حتى ليصل هذا العدد أحياناً إلى عشرة آلاف مليون أو يزيد . ويخرج من هذه الخلايا محاور عصبية شبيهة بأسلاك التليفون تصلها بمحطات أخرى فى الجهاز العصبى الفذ ، ثم بأنحاء الجسم كافة ، فتتلقى منها مختلف الانبعاثات والأحاسيس ، وتستجيب لها بطريقتها الخاصة ، المستمدة من الوراثة تارة ، ومن الخبرة والتجربة تارة أخرى ، وبين هذه الانبعاثات والاستجابات المعقدة تمضى الحياة إما فى سلام وإما بين زعازع وأعاصير .

وللحس وللمشاعر والنوم واليقظة والتبادل الغذائى وسائر وظائف الجسد ، كما للتفكير والإرادة والسلوك ، أجهزة مكونة من مجاميع معينة من هذه الخلايا ، يؤدى كل منها وظيفة بذاتها من وظائف الدماغ الحسية والعقلية والحركية والخلقية ، لا يتعداها إلى سواها مهما امتدت الحياة .

عوامل أخرى

يضاف إلى ذلك أن القص الجبهى فى المخ ، وهو أحدث أجزاء الدماغ نشوءاً فى الإنسان ، من المحتمل أن يكون فيه مثوى لكثير من المواهب العقلية المختلفة ، كالذاكرة والمعرفة وقوة الاستنباط .

ثم إن نسبة ما يختص من الدماغ بهذه الوظائف العليا بالنسبة لما يختص بالوظائف الحيوانية الدنيا ، هى كذلك ثقل من الأثقال فى ميزان العبقرية والنبوغ .

هذا إلى أن نسبة وزن الدماغ إلى وزن الجسم كله لها أهمية قصوى فى تحديد نصيب الإنسان من العبقرية أو الذكاء ، بل لعلها أكثر أهمية من الوزن المطلق للدماغ .

إن هذه النسبة فى الإنسان تدل على أن الكيلو جرام الواحد من وزن المخ يخدم حوالى خمسين كيلو جراماً من الجسد ، فى حين أن الأرقام المماثلة فى الشمبانزى والغوريلا تصل إلى ١٥٠ و ٥٠٠ بالترتيب.

ويخدم الكيلو جرام الواحد من وزن الدماغ فى الفيل « وهو يزن ستة كيلوجرامات » ٥٠٠ كيلو من وزن الفيل .

والحالة أسوأ من الحوت حيث يجب على كل كيلو جرام من الدماغ أن يعنى بحوالى أحد عشر طناً من وزن هذا الحيوان .

نحن أذكى خلق الله

فنحن إذن أذكى خلق الله ولا فخر ، وإن كان المظنون أن

الدرفيل قد يضارعنا من حيث هذه النسبة . بين وزن الجسم ووزن الدماغ .

فمن الدرافيل — كما يقول أزيموف عالم البيولوجيا الشهير — مالا يزيد وزنه على وزن الإنسان ، فى حين أن دماغه أثقل وأضخم من دماغ الإنسان ، وإن كان من غير المعروف ما إذا كان حظه من المراكز ذات الوظائف العليا . مثل حظ الإنسان ، أو أن هذه الضخامة ، كضخامة الجميز ، ينصرف أكثرها إلى الوظائف السفلى للحيوان .

الكلمة الأخيرة فى الموضوع

وليسمح لى المواطن السائل أن أردد له فى النهاية ما يقول أزيموف هذا :

« إن ثقل الدماغ وحده ، وإن كان آية من آيات الذكاء ، ليس الكلمة الأخيرة فى هذا الموضوع » .

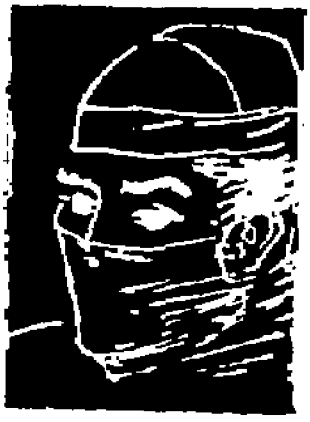

١٠

خدعوك فقالوا :

إنه ليس لك إلا خمس حواس

كتب أحد الأدباء فى جريدة الأخبار عن الحاسة السادسة لدى المرأة ، فقال إنها هاتف أو إلهام يدفعها إلى القيام بعمل غير متوقع ، ثم تتبين بعد ذلك أن هذا العمل كان هاماً وضرورياً ، ولو أنه تم بغير قصد أو تخطيط ؛ وقال إنها حاسة يتمتع بها كل النساء ، وإن الملهمين فيها قلة بين الرجال .

ووصف هذه الحاسة بالسادسة فيه تجاوز كبير ، فالكائن البشرى يملك على الأقل خمس عشرة حاسة ، وليس فقط خمس حواس . نعم إن الحواس الخمس هى السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، واضحة لصاحبها تمام الوضوح ، لأن لكل منها عضواً خاصاً بها ، ولا يستطيع أن ينساها أو ينسى وظائفها ، وهو يتبين عن طريقها الأشياء .

ولقد عرف أرسطو هذه الحواس الخمس ، ولعله تلقى هذه المعرفة عن قدامى المصريين ، وظلت الحواس الخمس عندئذ تتردد على أقلام الكتاب وألسنة الشعراء كجزء من تركة الأفكار والعقائد والمفاهيم التى يتوارثها جيل عن جيل ، وإن كان الواقع أن المرء لا يملك خمس حواس فقط ، وأن حواسه أكثر من ذلك . وليس ما سأذكره منها فى هذا المقال إلا طائفة بعينها من هذه الحواس :

عبقرية الخلق

فى الجلد غير حاسة اللمس ثلاث حواس أخرى معروفة لكل منا وهى حواس البرودة والسخونة ، ثم الضغط ، والألم الظاهر . وبرغم أن هذه الحواس موجودة كلها فى الجلد مثل حاسة اللمس تماماً ، فإن لكل منها مستقرًّا فى الجلد غير مستقر اللمس . ويستطيع العارف بوظائف الأعضاء ؛ أن يرسم خريطة على الجلد لهذه الحواس التى تتقاسم الجلد ، وإن كان لكل منها موقع خاص بها . . وهنا تبدو عبقرية الخلق ؛ التى توزع فى هذا الجزء المحدود مائتى ألف جهاز استقبال للحرارة والبرودة ، ونصف مليون جهاز استقبال للمس والضغط ، وثلاثة ملايين جهاز استقبال للألم تشعرنا بملايين المؤذيات التى تحيط بنا فى البيئة حيث نعمل وحيث نعيش .

الثقل التقريبى للأشياء

وهناك الحاسة العضلية التى نستطيع بها تقدير الوزن التقريبى للأشياء ، ولكى ندرك حقيقة هذه الحاسة نتصور ساعة موضوعة على نضد بجوار سرير نضطجع فيه . . فلو وضعنا يدنا على هذه الساعة لأحسسنا وجودها باللمس ، كما نحس وجودها بالعين ، وكما نحس بآذاننا الصوت الرتيب لدقاتها التى تتحيف ببطء أعمارنا وعمر الزمان ، ولقد نحس الساعة باردة بالقياس إلى جلدنا الدافئ ونحن مضطجعون

فى السرير تحت اللحاف . . فإذا رفعنا الساعة بيدنا من فوق النضد استطعنا بهذه الحركة أن نضيف إلى معارفنا السابقة عنها معرفة جديدة ، لم تكن تخطر لنا قبل هذه الحركة على بال ، وهى معرفة الثقل النقريبى لهذه الساعة . ومن المؤكد أن الحاسة التى أمدتنا بهذه المعرفة الجديدة لا علاقة لها باللمس ، وإلا أدركناها ونحن نلمس الساعة . . وإنما علاقتها بالعضلات ، وشعور المقاومة الذى نحسه لثقل الساعة فى عضلات الذراع .

نحن والوطاويط

ثم هنالك حاسة الأبعاد التى يستطيع المرء بها وهو مغمض العينين أن يحكم على بعده أو قربه من الحواجز والجدران ، من غير أن يراها أو يلمسها ، وهى حاسة يشتد نموها فى العميان ، حتى ليمشى أحدهم فى المكان الذى يألفه بدون عكاز أو دليل ، وبدون أن يمد يديه إلى الأمام يتحسس بهما الطريق ، ولهذا نراه قبل أن يصطدم بحاجز أو جدار يتحول عنه ، مبتعداً عما يؤذيه إلى مالا يؤذيه ، ولعل هذه الحاسة أو حاسة مشتقة منها هى التى تجعل كائناً كالوطواط ، يطير فى الكهوف المظلمة بسرعة البرق الخاطف لا يمس شيئاً ولا يصطدم بشىء ويسرى فى منعرجات الكهف سريان الصاروخ الموجه نحو هدف يبتغيه .

الساعة الخامسة إلا ربعاً

وفوق ذلك فإن لنا حاسة أخرى لتقدير الزمن ، وحسبى فى الإشارة

إليها أن أذكر هذا الفريق من الناس الذين تنمو فيهم هذه الحاسة نموًّا خاصًّا فيأوى أحدهم إلى الفراش وهو يضع نصب عينه أن يستيقظ فى ساعة معينة ، ليصلى الفجر حاضراً ، أو يلحق القطار ، أو يذهب إلى موعد هام فيستيقظ فى الوقت المحدد نفسه مهما طالت به ساعات السهر ، ومهما بلغ استغراقه فى النوم ... إن حاسة تقدير الزمن موجودة بقدر أو آخر فى كل إنسان ، ولكن لهذا الفريق من الناس منها نصيب كبير ملحوظ .

أين نحن فى الفضاء

وفى عضلاتنا حاسة أخرى تشترك معها فيها أربطة المفاصل وكذلك العظام ، وهى حاسة « الموقع » أى الشعور بمكاننا من الوجود ، وهو الشعور الذى يستجيب الجهاز العصبى للأحاسيس الصادرة منه فيأمر العضلات أن تتخذ هذا الوضع أو ذاك ، ويلزم الحدود التى لا بد منها لتتزن أجسامنا فى الفضاء حين نقوم وحين نقعد وحين نجرى وحين نسير ، بل حين يتعب جنب فننقلب على الجنب الآخر دون وعى منا ونحن نيام ، أو حين نرقص على حبل أو نمشى بين ماءين على فاصل بينهما من الأرض كالصراط .

حواس أخرى

وثمة حاسة الامتلاء وهى حاسة باطنة ، تنبعث من المثانة أو الأمعاء لتنبهنا أن هذه الأحشاء قد اكتظت بالفضول ، وأن أوان تفريغها قد

آن . . ومثلها من هذه الناحية حواس الشبع والجوع .

قلب الأم

تلك أربع عشرة حاسة ، وليست الحاسة « السادسة » المزعومة ، وهى الهاتف الخفى الذى يأمرنا بشىء أو ينهانا عنه دون قصد أو تخطيط ، فنطيعه ، فيكون لنا فى طاعته خير كثير ؛ ليست هذه الحاسة إلا الحاسة الخامسة عشرة بين هذه الحواس ، ولعل نصيب الأم من هذه الحاسة فى كل ما يتعلق بسلامة أولادها هو أوفر الأنصباء . وإنى لأذكر من هذه الناحية حادثاً وقع لى ذات ليلة وأنا شاب ، فقد طلبت عشائى ثم دخلت الحمام ، وكان به موقد بترول كبير لتسخين الماء ، فتسممت من أول أكسيد الكربون الذى ينشأ من نقص الأوكسجين بسبب احتراق البترول والفحم فى الأماكن المغلقة ، وأحسست فى رأسى بالدوار ، وفى عضلاتى بالضعف والوهن ، وكانت آخر حركة قدرت عليها قبل أن تدركنى غيبوبة التسمم ، أن أفتح محبس الهواء فى الموقد ، وكان هذا لطف الله ، وكانت أمى — يرحمها الله — سيدة مسنة ، وسألت عنى فقيل لها إننى عدت واستحممت وتعشيت وأويت إلى الفراش ولكنها لم تقتنع وظلت تعيد السؤال وتتلقى الجواب نفسه ؛ فقامت بعد لأى تتوكأ على الجدران فى الظلام حتى أتت فراشى ، فلم تجدنى . وكان هاتفها الخفى أو حاستها الخامسة عشرة سبباً فى إنقاذى من الهلاك ، وأنا ملقى على أرض الحمام ثلاث ساعات تائهاً فى غيبوبة الاحتضار .

الأرقام الصغار

ليس مما يتفق مع الواقع إذن أن نتحدث عن حواسنا الخمس ، فحواسنا أكثر من خمس ، وأكثر من عشر ، بل أكثر من الحواس الخمس عشرة التى أشرنا إليها إشارات عابرة فى هذا المقال . إن أجسامنا التى هى آية من آيات الله فى الخلق والإبداع لا تعرف مثل هذه الأرقام الصغار !

١١

خدعوك فقالوا :

إنك تهرم فى الستين

ليس للهرم من الناحية العلمية سنّ معينة ، ولا للشيخوخة فى أعمار البشر ميقات محدد ، فبعض الناس يهرمون فى الثلاثين ، أى فى السن التى كان ينبغى أن يزدهر فيها الشباب ؛ وبعض الشيوخ يتألقون فى السبعين والثمانين . إن الشيخوخة لا تقاس بعدد السنين التى قضيتها من عمرك ، ولكن بالقدر من الطاقة والقدرة على العمل المنتج ، والقابلية للاستمتاع بالحياة ، والتمكن من إفادة الناس . لقد يهن العظم فى الشيخوخة حين تجىء ، ويتغضّن الجلد ، ويشتعل الرأس بالشيب ، إن كان بقى فيه من الشعر ما يمكن أن يشتعل ، وقد تمنى الذاكرة بشىء من الوهن ، وقد تبطىء سرعة النشاط ، وتقصر الرؤية بالليل ، وتتخلخل قوة الملاحظة ، وكل ذلك نتيجة للتصلب التدريجى فى الشرايين ونقص جراية الدم التى تحملها للأنسجة والأحشاء . بيد أن هذه السمات كلها مرهونة برصيد الإنسان الوراثى من قوة البنية وصحة الشرايين ، والحرذان نفسها فى أقفاص التجارب ، تنجب من الذرية ما يبقى شبابه طويلا ، وما يشيخ فى بواكير الشباب . ويعزز هذا الرصيد الوراثى من هذه الناحية نوع الحياة التى يحياها المرء ، وهل يحياها بحكمة ، أو هو يعربد فيها بالعرض والطول ؟ ثم نظامه الغذائى وعاداته فى الطعام ، ومقدار

نشاطه البدنى والعقلى : ومايصاب به بحكم الظروف أو نتيجة التفريط والإهمال من أمراض وآفات ، والناس يختلفون أشد اختلاف فى هذه الأرصدة كافة ، بعضهم دائن ، وبعضهم مدين ، وبعضهم يغرقه الدين همًّا بالليل ومذلة بالنهار . ولقد كان برنارد شو الكاتب الروائى يتلألأ بالصحة البدنية والعبقرية الذهنية وهو فوق الثمانين . واستطاع تشرشل أن يقود بلاده إلى النصر فى الحرب العالمية الأخيرة وبعد هزيمتها الكبرى فى دنكرك ، وهو فوق السبعين . وهاهو ذا شارل ديجول رئيس جمهورية فرنسا السابق قد ملأ الدنيا وشغل الناس وهو فى التاسعة والسبعين . وليس هؤلاء الساسة بدعاً من هذه الناحية ، ولا هم خوارق أو معجزات ، ففى محيط كل منا معمرون انحنت أكتافهم تحت وقر السنين ، ولا يزالون يعملون بجبروت الشباب الممتزج بخبرة الشيوخ ودرايتهم ومعارفهم : إن السن لم تكن قط معياراً للصحة والعافية والنشاط والقدرة على الإنتاج والمتعة بالحياة ، والذين سنّوا قوانين الإحالة إلى المعاش فى سن الستين ، إنما استوحوا هذه القوانين من متوسطات الأعمار التى كانت سائدة فى شعوبهم وقت إصدار هذه القوانين . فى بلادنا مثلا كان متوسط الأعمار حين صدر هذا القانون أقل من ثلاثين عاماً ، وكان من المعقول أن تصبح سن الستين بداية لسن العجز أو الوهن البدنى أو العقلى لكثير من الناس ، فأما وقد بلغ هذا المتوسط فى بلادنا اليوم ، وحسب إحصاء سنة ١٩٦٠ ، اثنين وخمسين عاماً ، بفضل الإصلاح الصحى الدائب والانتعاش الاقتصادى العام ، وبفضل العصر الطبى

الذى يجب أن نزهى بالحياة فيه ، والذى أولانا كثيراً من النعم فى الطب والجراحة والتخدير والعقاقير الشافية لكثير من الأمراض التى كانت تمهد للعجز وتحترم الحياة ، والعقاقير والنظم الحيوية المؤجلة للشيخوخة ، والتى أصبحت اليوم موضوع علم مستقل خطير — أما والأمر كذلك فإن من الظلم أن نستمر على النظر إلى قدرة الإنسان وطاقاته فى سن الستين بالعين التى كان ينظر بها أجدادنا إليها ، أى اعتبار أبناء الستين « كخيل الميرى العطلانة » التى لا يصلح لها إلا ضرب الرصاص ! !

نعم إن ذلك قد يصح فى بعض أصحاب المهن القاعدة التى لا يفارق أصحابها المكتب إلا إلى المقهى ، ولا يغادرون المقهى إلا إلى السرير ، وهى المهن التى توزن السنة فيها بستتين فى موازين الصحة والعافية والكفاية البدنية والعقلية ، والتى تمد طرقاً سلطانية إلى الفناء التدريجى المبكر ، إذا لم يلتمس أصحابها لأنفسهم مجالا للنشاط ، والرياضة البدنية ، يكافحون به غزوات الخمول والكسل للأنسجة والعضلات واستحالة الأغذية الفائضة عن حاجات الجسم إلى رواسب دهنية فى بطائن الشرايين.. كما أنه قد يصح فى بعض الصناعات الدقيقة التى تحتاج إلى قوة الملاحظة فى عنفوانها ، وإلى مرونة حركة عضلات الأنامل على أقوى ما تكون ، وإلى اليقظة المرهفة فى الحواس بصفة مستمرة ، وسن الستين وما فوقها قد لا تسخو على صاحبها بمثل هذا الترف فى القوى والقدرات ، بيد أن من الثابت الآن فى المهن الذهنية بالذات ، أن الذاكرة وإن

وهنت بعض الشيء فى بدء الشيخوخة فإن احتفاظ المرء بقوى الفطنة والخلق والإدراك كما يتوقف على رصيده الوراثى مرهون كذلك ، بما اكتسبه من المران العقلى فى مراحل حياته ؛ وما ادخر من ذخائر المعرفة والثقافة على طول السنين ، وليست الذاكرة من هذه الناحية بالرصيد الذى لا يمكن تعويضه ، ولا هى بالمستلزم الضرورى الذى يحتاج إليه الشيوخ ، ولاسيما العلماء ؛ وكلنا يعرف حكاية نيوتن والبيضة التى كان يضعها على أذنه ، والساعة التى كان يقذف بها فى الماء المغلى على النار ! !

لقد رأيت فوجاً من الشيوخ حشدتهم إحدى مقدمات البرامج فى التليفزيون ، وكلهم من المحالين إلى المعاش . . أجلست جماعة منهم فى الشمس كتنابلة السلطان ، يمصون أصابعهم ، ويعدّون الغربان فى السماء ، ونظمت ثلة منهم فى مقهى يقتلون الوقت الفارغ بالاستماع إلى قرقعة حجارة النرد ، وهى « تضرب ، وتهرب ، وتملأ الخانات » ، ورصت فريقاً منهم تحت خميلة ظليلة ، أمرت سنة من نوم القيلولة أن تطوف بهم مصعدة بأحلام بلاهتهم البادية من شفاههم المدلاة ، إلى حيث تقف سفينة فينوس السوفييتية على سطح الزهرة فى ملكوت السماوات ! ولست أدرى فى الواقع كيف اتفق للسيدة المذيعة أن تجمع على ميكروفونها كل هذا الحشد من العجائز المتعطلين ؟! لقد عرفت شيوخاً بالمعنى السيئ الحظ الذى توحى به هذه الكلمة فى خواطرنا ، يعملون وهم فى السبعين من أعمارهم ، فى بعض المحافل الدولية الفنية ، ويعدّون

فيها كالمصابيح الهادية و « الفرامل » التى تحول بين العاملين فى هذه الأوساط وبين جموح الشباب . ولقد كان سيدنى سميث الذى كان استاذاً للطب الشرعى فى أوائل هذا القرن ، فى جامعة القاهرة ، عميداً لكلية الطب فى أدنبرة ثم مديراً لجامعتها ، وهو يخطو إلى السبعين .

ولقد حدث لى ذات مرة وأنا فى بداية حياتى الطبية ، وكنت أعمل بقسم الأمراض فى كلية طب القاهرة مع الأستاذ برنارد شو ، وهو ابن عم لبرنارد شو الكبير — وكان يقول لمن يسأله : هل يمت بالقرابة للكاتب المشهور ؟ إن هذا الكاتب هو الذى يمت لى بصلة القرابة ! . . . حدث أن كتبت فى تقرير أصف فيه جثة سيدة متوفاة فى الثالثة والأربعين من عمرها . إن الجسد جسد امرأة فى وسط العمر ، فلم تكد عين الأستاذ تقع على هذا الوصف حتى انتفض كالذى لدغته عقرب ، وقال : إذا كنت تعدّ هذه المرأة — وهى فى الخامسة والأربعين — متوسطة العمر ، فلا بد أنك تعدنى وأنا فوق الخمسين ، فى الغابرين ولم ينقذنى من لسانه الطويل — غفر الله له — إلا إثباتى له أن متوسط العمر عندنا يختلف تماماً عن متوسط العمر فى مسقط رأسه بإيرلندة حيث كان يقترب يومئذ من الستين ، وعرفت أستاذاً جامعيًّا مصريًّا نصحه أطباؤه بسبب عاهة تخلفت عنده من جراحة فى المخ أن يهجر التدريس إلى آخر عمره ، وأن يتنحى عن كل نشاط اجتماعى فى الحياة ، ولكنه رفض النصيحة ، وقاوم وناضل ، وأخضع عاهته لأاوان شتى من التأهيل ، وظل ولا يزال حتى السادسة والستين يمارس نشاطه ثلاثين سنة لم يلحظ عليه فيها أحد

شيئاً ، ولا حالت عاهته دون أى نشاط يطالب به أستاذ .

وقد شاء صاحب مصنع سيارات مشهورة فى أمريكا حين خلف أباه على هذا المصنع حوالى ١٩٤٩ ، وهو فى عنفوان الشباب ، شاء أن يحيل إلى الاستيداع كل من سماهم بالشيوخ الذين جاوزوا الستين من المهندسين ورؤساء الأقسام والعمال . فكانت النتيجة إخراج سيارة كنت أحد ضحاياها ولا فخر ! فقد كانت تستهلك من البنزين ماتستهلكه قاذفة قنابل : وكانت تحرق الزيت كأنه حطب والعياذ بالله ، وكانت تمشى تتهادى فى الطريق تتزّ وتتزّ كالنعش المفكك ، ولا يحلو لها أن تضرب عن المسير إلا عند إشارة المرور . . . ولقد اضطر الشاب الفيلسوف صاحب المصنع بعد هذا الدرس القاسى أن يعود إلى التعامل مع الشيوخ الذين أحالتهم رعونته إلى الاستيداع ، مضيفاً إلى فورة الشباب وحماستهم ملح الخبرة فى الشيخوخة والحكمة والنضج .

إن موضوع الشيخوخة فى النهاية موضوع كفاية وقدرة وعافية أكثر منه موضوع شهور وأعوام . والسن التى يهرم فيها الإنسان لا تحددها التقاويم ولا قوانين المعاشات ، ولكن تحددها الوراثة وممارسة النشاط البدنى والعقلى بانتظام ، والتماس هواية مفيدة قد تصبح لصاحبها فى الشيخوخة مجلبة رضا ومصدر رزق ومنبع شباب يحميه من الحياة فى المقاهى وتحت الخمائل كتنابلة السلطان ، وانتفاع بالغذاء الكافى التى تتوافر فيه كل العناصر الغذائية التى تحتاج إليها خلايا الأنسجة بدون إفراط ، والتوسط فى المتعة بملاذ الحياة ؛ واستعمال العقاقير الواقية من الشيخوخة التى ينصح

بها الطبيب ، والفحص الطبى الدورى مرة كل عام . . إنك تستطيع بهذه الوسائل — ومعظمها ممكنة التحقيق — أن تتحدى الزمن فى شيخوختك ، وتتحدى قانون المعاشات ولا تكون كالعبيد الذين كلما كبروا قلت قيمتهم فى السوق ولا كخيل الميرى العطلانة التى لا يصلح لها إلا ضرب الرصاص !

١٢

خدعوك فقالوا :
إن قلبك فى جانب صدرك الأيسر !

يقع قلبك « أو قل معظمه » وراء عظمة القص التى تتوسط الصدر ، هى وما يتصل بها من غضاريف الأضلاع ، ولكنك إذا سألت عدداً من الناس ، حتى المثقفين ، عن موضع القلب ، أشاروا لك توًّا إلى جانب الصدر الأيسر ، لا لشىء إلا لأنهم يحسون دقاته هناك .

إن القلب أشبه ما يكون بمخروط عضلى يتوسط الرئتين فى قاعدته فى الجانب الأيمن من الصدر ، وجرمه تحت القص ، ورأس المخروط فى الجانب الأيسر . ويمثل هذا الرأس نهاية البطين الأيسر للقلب . وهو الوعاء الذى يتسلم الدم النقى من الرئتين ويدفعه بقوة إلى الشريان الأكبر فى الجسم — الأبهر — فيوزعه على سائر الأنسجة والأعضاء والأحشاء بعدالة عمر بن الخطاب . وفى كل دفعة من دفعات هذا الدم يحس المرء دقة من دقات قلبه إذا أنصت إليه ، ولا سيما إذا كان ينبض بعنف لأى سبب من الأسباب .

من ٢٥ إلى ١٠٠٠

إن دقات القلب تزداد وتشتد بالمجهود العضلى الشاق ، والانفعالات النفسية المفاجئة ، ودرجات الحرارة المرتفعة ، وفى أثناء هضم الطعام ،

وعند الفزع من موقف رهيب ، وبعد النزف ، وفى الصدمات العصبية ، وفى مناوشات الغرام ؛ وعند تضرج الوجنات بحمرة الخجل ، وحين ترى الحبيبة المخلصة جالسة مع شخص آخر على حجر فى سفح الهرم الكبير !

ويدق قلب الشخص البالغ فى حالة الهدوء من ٧٠ إلى ٨٠ مرة فى الدقيقة ، أى أنه يدق أكثر من ١٠٠,٠٠٠ دقة فى اليوم ، أو أكثر من ٢٠٠٠ مليون مرة فى عمر الشخص الذى يبلغ الستين ، وبدون عطلات أو إجازات مستطيلة . وهو يدفع إلى الجسم فى كل دقة حوالى نصف فنجان شاى من الدم ، ويصل ما يرسله من الدم إلى الجسم خلال هذا العمر إلى حوالى ٦٤ مليون جالون .

على أن دقات القلب تختلف بين مرحلة ومرحلة من العمر .

آه ياقلبى !

إن دقات القلب سبب من سببين رئيسيين جعلا أكثر الناس يعتقدون أن القلب فى الجانب الأيسر من الصدر ، والسبب الثانى هو ما ألف الناس أن يسمعوه من أن الآلام الناشئة من اعتلال القلب تكون فى هذا الجانب من الصدر ، وهو باطل آخر من سلسلة الأباطيل التى تتصل بتاريخ هذا العضو الحيوى العظيم . . فألم القلب ليس وقفاً على الجانب الأيسر من الصدر ، وإنما يكون أكثره تحت عظمة

القص وينتشر منها إلى اليمين أو الشمال إلى الذراعين ، أو إلى أسفل الصدر أو أعلاه .

ثم إنه ليس ألماً ككل الآلام التى تطعن كالخنجر ، أو تخز كالمسمار ، أو تتشعب تشعب التيار الكهربى . . . إنه ألم ضاغط ، خانق ، ساحق ، كأنه حمل هائل يجثم على الصدر ، أو كأن الصدر تعتصره كلابتان . يضاف إلى ذلك أن هذا الألم يأتى عادة بعد القيام بمجهود ، ويذهب إذا ذهب المجهود . .

وقد يحدث هذا الألم نفسه من موت بضعة من عضلة القلب نتيجة للانسداد الكامل فى الشريان الذى يمدها بالغذاء والأوكسجين ، وفى هذه الحالة لا يرتبط الألم بالمجهود ، وقد يقترن بالإغماء .

وليس كل ألم فى الجانب الأيسر من الصدر منشؤه القلب ، فإن الآلام فى هذه المنطقة كثيرة ، وبالأخص منها الألم الواخز والألم النشار ، فقد تكون هذه الآلام مما يسمى خطأ بروماتزم العضلات ، وقد يكون منشؤها من مفاصل العمود الفقرى فى العنق والظهر ، وقد تنشأ من القلق النفسانى الذى يختار هذه المنطقة بالذات ليجرب فيها ألاعيبه استثارة للاهتمام .

العضو الأصيل

إن القلب هو أقوى عضلة من عضلات الجسم ، ولعله أطولها عمراً ، وأشدها جلداً على المحن والأحداث ، وأكثرها ازدهاراً على الجهد

والنشاط والعمل الشاق . والقلب أشبه مايكون فى عمله . بالآلة ، فإنه أقل الآلات حاجة إلى الراحة أو الإصلاح ، أو قطع الغيار ، هذا بطبيعة الحال إذا لم يضايقه مرض كالروماتزم المهمل الذى لا يعالجه صاحبه ولا يحاول توقيه ، برغم أنه مرض قابل للتوقى والعلاج ، وما لم يعرقل عمله مرض كتصلب الشرايين .

صدأ السنين

إن تصلب الشرايين أقرب ما يكون إلى صدأ يرسب فى بطانتها رسوب الطين فى قنوات الرى ، ويضيق مجراها كضيق مجرى هذه القنوات بالأعشاب ، فيجعلها عرضة للانسداد .

وأهم أسباب هذا الصدأ ارتفاع ضغط الدم مع السن ، والسمنة المفرطة ، والتخمة ، وغنى الطعام بدهن الحيوان ، وقلة النشاط والرياضة ومرض السكر ، والإفراط فى التدخين ، والاضطرابات العاطفية المزمنة ، مضافاً إلى هذا كله مايرثه المرء من استعداد لهذا الصدأ من الآباء والأجداد .

إن هؤلاء المتآمرين التسعة كثيراً ما يجتمعون معاً على القلب الشهيد فتسوء عقباه ، وكثيراً ما يجتمع بعضهم ويغيب بعض ، وكلما قل العدد قلت متاعب القلب ، وفى استطاعة كل إنسان أن يحول دون اشتراك أكثريتهم فى هذا التآمر على قلبه ، ولا سيما إذا طردهم بالعيش المنظم ، والتوسط ، والطعام المناسب ، والرياضة المعتدلة والابتسامة للحياة ،

والفحص الطبي الدورى ليعرف أى هؤلاء المؤتمرين قد استغفله، واقتحم مكان الاجتماع .

إن عنترة بن شداد لو قام من قبره وضرب بسيفه البتار عدوًا من أعدائه فى منتصف الرأس ؛ ومنتصف عظمة القص ، فشطره رأسيًا ومن الأمام إلى الخلف إلى شطرين ، لوجدنا أن القلب قد انشطر هو الآخر إلى شطرين . فكان نصفه إلا قليلا فى جانب الصدر الأيمن ، وكان نصفه — أو فوق ذلك قليلا — فى الجانب الأيسر . .

بيد أن عنترة لو فعل ذلك الآن ، لما ذهب الأمر دون مضاعفات ، فإن حبل المشنقة كفيل بأن يعيده إلى حيث كان ، وقد انشطر عنقه — بالعرض لا بالطول — على طبلية الإعدام ، وخير له أن يبقى حيث هو ، كافيًا خيره شره . متمتعاً بسمعته الحسنة على الأقل بين الأبطال والشجعان ! !

١٣

خدعوك فقالوا :

إن كل ألم فى المفاصل روماتزم

كانت صلاة الجمعة فى مسجد قروى ، وكان بجوارى شيخ متداع كلما قام من ركعة أو سجدة سمعت مفاصله « تطقطق » ، وسمعت من فمه أصواتاً خافته تختلط فيها شعائر الصلاة بالأنين البادى والمكتوم « ياضهرى ياضهرى . . ياكريم يارب ! » وسألته بعد أن انتهت الصلاة عما به فقال : « المدعوق المورتوزم يا ابنى . . أجارك الله » ! »

وكان يقصد الروماتزم بطبيعة الحال .

والذين يتهمون الروماتزم بكل ألم يصيبهم فى المفاصل كثيرون ، وهو اتهام ظالم قلما يصح إلا فى أقل من خمس حالات فى المائة من حالات آلام المفاصل . فالروماتزم مرض من أمراض الطفولة والشباب وهو مرض للقلب أكثر منه مرضاً للمفاصل ، فهو على ما يقال كلب عقور يعض القلب بقسوة ويلعق المفاصل برفق ، ولا يكاد المريض يعالج من الروماتزم حتى تعود المفاصل إلى حركتها الحرة كأحسن ما كانت عليه . وقد يستطيع المريض بالروماتزم الحقيقى أن يتقى هذا المرض وأفاعيله فى المفاصل ، يتقى المرض نفسه وأذاه ، إذا عالج علاجاً حاسما كل التهاب يصيب الزور .

فالروماتزم إذن لا يضرب المفاصل بعنف ، ولا يعيث فيها فساداً ،

وإنما تفعل ذلك أمراض أخرى ، تضرب المفصل بشدة ، وتدمّر أغشيته الداخلية ، وتأكل غضاريفه ، وربما أكلت كذلك جزءاً من العظام .

شبيه الروماتزم

وعلى رأس هذه القائمة من الأمراض الالتهاب المفصلى شبيه الروماتزم ، وهو مجهول الأسباب حتى الآن ، ويصيب النساء أكثر من الرجال ، ويضرب عادة بين سن العشرين وسن الأربعين ، ويؤثر فى المفاصل الصغرى بالأيدى والأقدام أكثر مما يؤثر فى المفاصل الكبرى ، ويصحب الإصابة ضمور شديد فى العضلات ، وتيبس فى حركة المفاصل المصابة ، يفقدها القدرة على الحركة بالتدريج . .

ومن أهم ظواهر هذا الألم المفصلى أنه يزداد مع الراحة ، ويقل مع النشاط وقد تتشوه اليد أو القدم فتصبح كالمخلب إذا لم يعالج المريض . وقد يصبح المريض قعيد الدار . وعلى الرغم من تسمية المرض بأنه شبه روما تزمى فإنه لا يمت للروماتزم بأية صلة أو رباط .

الانحلال الشيخوخى

ومن أشهر أمراض هذه القائمة كذلك ، الانحلال المفصلى الشيخوخى أو ما يسمى بالالتهاب العظمى المفصلى وأكثر من يصاب به الكهول بين الأربعين والستين . وأكثر المفاصل استعداداً للإصابة به

هى المفاصل التى تحمل ثقل الجسد كمفاصل العنق والظهر والمقعدة والركبتين . وكذلك المفاصل التى تجهد بالعمل « كالمفاصل النهائية فى أصابع النساء » ، وهو المرض الذى تكثر فيه طقطقة المفاصل عند الحركة ، نتيجة لتصادم عظام المفصل بعضها ببعض ، بعد أن أفنى المرض ما كان يكسوها من الوسائد الغضروفية ، التى تجعل تحرك عظام المفاصل بعضها فوق بعض أسلس ما يكون . ومن سمات هذا الألم أنه يزداد مع التعب ، وطول الوقفة ، ومشقة العمل ، ويزول أو يخف حين يستجم المريض .

القائمة طويلة . .

ومنها السل الذى يدمّر هو كذلك غضاريف المفصل وعظامه ، ولاسيما فى المفاصل الكبرى كالفخذ والركبتين . . فهو كاللص الذى يسرق الجمل وينصرف عن الدجاج ، إذ يختار مفصلا كبيراً أو مفصلين فيتلفهما ، إذا لم يعالج ، ويضيع حركتهما ، ويؤدى إلى تقصير الساق المصابة ، وتثبيتها فى وضع يغلب عليه التشويه .

وقد يؤذى بعض المفاصل الكبرى كذلك السيلان الذى لا يعالج . وقد قل هذا المضاعف من مضاعفات المرض الآن ، لأن الشباب أصبح أكثر وعياً لمزالق المراهقة من جانب ، ولأن مضادات الحياة الجرثومية « من الجانب الآخر » أصبحت سلاحاً فعالا ضد هذا المرض السافل السخيف .

وفى قائمة هذه الأمراض المدمرة للمفاصل توجد بعض الأمراض الخبيثة « كالسرطان » وكثير من الأمراض الأخرى قليلة الحدوث .

ضلال حتى فى الأسماء

على أنه بغض النظر عن آلام المفاصل الناشئة من الأمراض ذات القدرة على إتلافها ، فإن هناك سلسلة أخرى من آلام المفاصل يطلق عليها اسم مزدوج وهو الروماتزم العضلى ، وهى تسمية باطلة لأن أسباب هذه الآلام لا علاقة لها هى الأخرى بالروماتزم ، وهى ولو أنها فى المفاصل إلا أن مركز الأذى فيها هو العضلات والأوتار المحيطة بالمفاصل . . وأسباب هذا الروماتزم العضلى المزعوم غير معروفة تماماً ولكن المعروف أن هناك ظروفاً خاصة تهيئ له الطريق .

بعض من كل . .

فالبرد والرطوبة إذا تعرض لهما مفصل بذاته ، دون الجسم كله ، فقد يحس المرء ألماً فيه . .

والتعب بعد الخلود إلى الراحة طويلا قد يحدث فى بعض المفاصل تيبساً فى الحركة مع بعض الآلام التى تزول فى أيام .

ويحدث مثل ذلك فى الصناعات التى تقتضى إرهاق العضلات فى عمل شاق طويل . وأكثر ما تحدث هذه الآلام المفصلية حين تكون

العضلات مرهقة ثم تتعرض للبرد بعد الإرهاق .

والأذى الذى يصيب مفصلا بعينه قد ينصب على بعض عضلات المفصل أو أوتارها فيؤدى إلى كثير من المضاعفات والآلام . ومن هذا النوع إصابات مفاصل الرياضيين ، ولا سيما لاعبى الكرة ، من الضربات الخطأ ، والتصادمات العمياء . والسمنة المفرطة قد تصحبها آلام فى مفاصل الغنق والظهر ، نتيجة لحمل أثقال من تلال الشحم ، أو للانزلاق الغضروفى فى مفاصل العمود الفقرى ، وهو كثير الحدوث فى هذه الأحوال .

وفى بعض العدويات كالأنفلوانزا والتهاب اللوزتين و « حتى لو لم يضاعف هذا الأخير بالروماتزم » كثيراً ما يقترن ، المرض بآلام فى المفاصل منشؤها العضلات . بل إن القلق النفسانى والصراع العاطفى قد يؤدى حياناً إلى مثل هذه الآلام . وفى كل هذه الأحوال لا يجد المريض مشجباً يعلق عليه متاعبه إلا الروماتزم ، والروماتزم الحقيقى منها برىء .

الوقاية خير . .

وإذا كان لدى الأطباء أكثر من وسيلة يحتالون بها على علاج كثير من هذه الأمراض ، فإنه لا توجد قاعدة عامة لتوقى آلام المفاصل ، وإن كانت فى تعاليم الصحة الشخصية بعض الخطوط العريضة لتحاشى هذه الآلام .

ومن هذه الخطوط تفادى البرد والرطوبة والتيارات الهوائية بقدر الإمكان ، واستعمال عوازل الرطوبة فى جدران المبانى ، وارتداء الصوف على الجسم وفى الأقدام فى الجو البارد ، وتجنب الإجهاد العضلى العنيف ولاسيما فى عمال النقل والمناجم والمعادن . . ومحاربة أى بؤرة للتقيح فى الجسم ، كتقيح الزور والجيوب الأنفية والأسنان . . ثم استشارة الطبيب فى كل مايطرأ علينا من هذه الآلام . .

١٤

خدعوك فقالوا :

إن القلب ينبوع العواطف

مخدوعون هم . أولئك الذين يظنون أن استبدال قلب فى عنفوان الشباب بالقلب المريض العجوز المتداعى من المرض والشيخوخة سيغير من الانفعالات العاطفية للشيخ ويجعله يحمر بسرعة من الخجل ، ويرخى أجفانه دلالا وحياء ! !

لقد بدأت أقلام الكتاب تدغدغ جنب الشيخ واشكانسكى ، وهو مازال يجتاز الفترة الحرجة من جراحته ، بفكاهاتها المضحكة ، وحتى الجراح الذى أجرى هذه الجراحة التاريخية نفسه ، بدأ يتحدث عن القلب الصغير الشاب الذى يتأرجح فى القميص الفضفاض ، المتخلف عن القلب المستأصل العجوز . .

وياطول ماسيلقى الشيخ واشكانسكى من لذعات أقلام الكتاب التى لا ترحم ، وياما أكثر ما سوف يجد نفسه ، وقلبه المستعار محوراً لفكاهات العالمين ! !

مسرح مظاهرات

إن القلب ليس ينبوع الانفعالات العاطفية ، ولكنه مسرح لمظاهراتها ، ومجال لترداد صدى هتافاتها القادمة من بعيد .

فالقلب ليس أكثر من مضخة ، تقوم على صغر حجمها الذى لا يكاد يتجاوز حجم قبضة إحدى يديك : بعمل هائل : تدفع فيه ما قد يصل إلى عشرة أطنان من الدم كل يوم إلى الشرايين . وقد يزيد حين يتأثر القلب بالانفعالات العاطفية أو بالإرهاق البدنى الشديد .

أما منبع الانفعالات العاطفية ، والمخاوف ، والأفراح والأحزان ، فأكثره من البيئة وضغوطها المختلفة ، ومباهجها وتعاساتها الكثيرة ، وبعض منه من الجسم وآلامه ، ومن العقل ومن همومه الثقال ؛ يصل كل ذلك عن طريق المسالك الحسية المختلفة إلى الإدارة العامة للجسم ، والجهاز العصبي المركزى الذى يعمل بإرادتنا ، والجهاز العصبى الذى لا يخضع لهذه الإرادة ، وإنما يعمل دون وعى منا فيجعل قلوبنا تخفق حتى ونحن فى غاشية إغماء ، ويجعل جهازنا الهضمى يعمل حتى ونحن نيام ، ويجعل أحشاءنا ينهض كل منها بدوره فى هذا الجهاد المتسق العظيم الذى يقوم به فى الجسم أثناء الحياة ، ولو وقف هذا الجهاز العصبى غير الخاضع لإرادتنا ، أو أضرب عن العمل خلال لحظات من هذا الغياب المؤقت عن الوعى ، لأنبتّ العيش بنا ، ولغربت شمس الحياة . .

ويؤازر هذا الجهاز العصبى اللا إرادى فى السيطرة على انفعالاتنا العاطفية جهاز آخر معقد من بعض هرمونات الغدد الصماء ، يعمل معه فى تعاون كامل وانسجام تام .

هذا إلى أن هذه الانفعالات العاطفية وثيقة الصلة بغرائزنا الموروثة إلى حد كبير ، فالخوف وثيق الصلة بغريزة البطش والسلطان وهكذا . . .

وليس للقلب فى هذه الانفعالات كلها إلا تلقى الأوامر التى تصدر إليه عن طريق الأعصاب ، ليدفع دماء أكثر إلى هذا العضو أو ذاك تبعاً لمقتضيات الأحوال .

الخوف القديم والخوف الجديد

لقد كانت هذه الانفعالات القوية تساعد الإنسان البدائى كما تساعد الحيوان ، على النجاة بحياته من بوائق الخطر والهلاك ، أو على اقتحام هذه البوائق والانتصار عليها ، والخروج منها بسلام .

أما اليوم فلم يعد فى حياتنا وحوش ، ونمط حياتنا يحتاج إلى الهدوء أكثر مما يحتاج إلى العنف ، وبعض انفعالاتنا العاطفية كانفعالات الفرح والحب انفعالات بناءة تمد فى العمر وتطيل فى الحياة . وبعضها الآخر انفعالات هدامة ، مبعثها الهموم التى تخترم الجسوم نحافة — على ما يقول المتنبى — وتشيب ناصية الصبى قبل الأوان ، ومنها انفعالات الحسد والحقد والبغض وأوهام المرض المسماة بالوسواس .

إن هذه الانفعالات الأخيرة إذا استبدت بنا أدت إلى مرض البدن والنفس والروح . . هضمنا يسوء ، وحياتنا تظلم ، وقلوبنا تخفق خفقان الحيوان المذعور ، وضغط دمنا يرتفع ، ونبضنا يزداد ، وقد نصاب بقروح المعدة والأمعاء ، وقد نصاب بالربو ، وقد تؤدى بنا نوبة غضب إلى نزف دماغى خطير .

إن الهم — وهو خوف مزمن — يحدث من الأمراض فى البشر

أكثر مما كانت تحدثه الوحوش كلها بالحيوان ، وأكثر مما تحدثه كل الميكروبات بالبشر فى الوقت الحاضر من أمراض !

حيرة

لقد حار البشر منذ خلقوا فى أصل العواطف وينبوع الانفعالات.

زعموا الكبد مصدرها فى البداية ، فقال شاعرهم :

ولى كبد مقروحة — من الهموم طبعاً ! . . من يبيعنى بها كبداً ليست بذات قروح !

وعزوها تارة إلى الطحال ، ولا يزال كثير من الريفيين يتحدثون عن الطحال الذى يوشك أن ينفجر من الغيظ . .

ثم أسندوها أخيراً إلى القلب لأنهم وجدوا القلب يخفق كلما انفعل الإنسان ، ووجدوا الوجنات تتضرج بحمرة الخجل ، أو تبهت من صفرة الذعر ، وللشعراء فى هذا المجال صولات وجولات حسبى فى الإشارة إليها ، أن أذكر قول إسماعيل صبرى :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة
ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً
حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

ومن العجب أنهم — حتى القرن الثامن — عشر لم يفكروا قط من هذه الناحية فى الدماغ ، وفى الجهاز العصبى ، لأنهما ظلا بعيدين جداً عن

مسرح المظاهرات العاطفية . وعن صدى هتافاتها العالية فى سائر الأعضاء والأحشاء . كما ظلا موغلين فى التخفى وراء أسوار حصونهما العظمية المنيعة . التى لا تسمح بالدخول لنظرات التطلع وتأملات الفضول .

شيخ أو فتاة

سواء إذن أكان قلب فتاة أم قلب رجل مسن عجوز ذلك الذى يتأرجح فى القميص الفضفاض الذى خلفته الجراحة بين جوانح الشيخ واشكانسكى ؛ فهو من ناحية الا نفعالات العاطفية ؛ إنما ينفذ الأوامر التى تصل إليه من دماغ السيد وأعصابه . دون أن يتأثر أقل تأثر . بطبيعة فلذة اللحم التى استعيرت له من قلب فتاة ، وتركت هناك تتأرجح فى قميص فؤاده الفضفاض .

سيظل هذا القلب الفتى ، إن عاش السيد واشكانسكى ، مجرد مضخة ، تكبس الدم فى شرايينه سبعين مرة فى الدقيقة . وتأتمر من حيث الانفعالات العاطفية بأمر الدماغ والأعصاب والهرمونات ، التى تصدر من الشيخ واشكانسكى القديم ، لا من بضعة اللحم الجديدة ؛ المستوردة من الخارج ، والمستعارة من قلب فتاة !

° ° °

ملاحظة : الشيخ واشكانسكى هو أول مريض زرع فى صدره قلب جديد ، عاش به فترة من الزمان ، ثم لفظه الجسم ، فمات .

١٥

خدعوك فقالوا :

إن تشوهات القلب ضعف فسيولجى فيه

تشوهات القلب التى يولد الجنين وهو مصاب بها ، أمر شبه مألوف وليس فيه أية غرابة أو شذوذ ، وهى نوع من التشوهات العضوية العامة التى تصيب الجنين فى حياته الرحمية . سواء فى العين فتعميها ، أو فى الأذن فتصيبها بالصمم ، أو فى الأمعاء أو سواها من الأعضاء فتحدث بها ماتشاء من آفات وتشوهات القلب الرحمية . سواء أكانت ثقوباً فى جدرانه الداخلية أم ضيقاً فى صماماته ، أم اتصالات من أى نوع بين مجرى الدم النقى المحمل بالأوكسجين ، ومجرى الدم غير النقى المحمل بثانى أكسيد الكربون . تؤلف على ما يقال حوالى خمسة فى المائة من جميع أمراض القلب فى كافة الأعمار ، والمقول إن واحداً من كل ألف من المواليد ، يولد بآفة أو أخرى من هذه الآفات ، أصابت قلبه وهو جنين ، إنها آفات شائعة نسبياً وشبه مألوفة . والطفلة غزالة البالغة من العمر عشر سنوات والتى عثر عليها سيادة محافظ الوادى الجديد فى واحة الفرافرة مصابة بثقب فى القلب ، فحملها معه مشكوراً لتعالج فى أحد المستشفيات الجامعية ليست أولى ولا أخرى حالات التشوه الرحمى الذى يصيب عضواً أو آخر من أعضاء الجنين .

ينبوع الآفات الرحمية

إن هذه الآفات ليس مصدرها الأول — على ما قال راوى الخبر — هو ضعف القلب الفسيولوجى أو اتساع الثقوب الكائنة فيه ، والتى يجب أن تتلاشى عند الولادة أو بعدها بقليل ، فإن كل طفل معرض لها فى حياته الرحمية ؛ أو كل طفلة بالأحرى ، فإنها أكثر حدوثاً فى البنات منها فى الصبيان ، ولو كانت الطفلة هى السفيرة عزيزة ، أو كان الطفل هو الابن البكر لعنترة بن شداد . إن الينبوع الأول للتشوهات الرحمية فى الجنين هو إصابة الأم أثناء الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل — أى فى أثناء تكوين الجنين — ببعض الأمراض المعدية الناشئة من عدوى الفيروسات ، وأشهرها من هذه الناحية وأكثرها إسهاماً فى إحداث هذه التشوهات فى الأجنة هى الحصبة الألمانية . . إنها المجرم الأول فى هذه الجنايات على الجنين المسكين .

مرض قائم بذاته

إن الحصبة الألمانية ليست نوعاً من الحصبة ، ولا تمت لها بأية صلة أو قرابة ، فهى مرض قائم بذاته وقد يشبه الحصبة بعض الشىء فى الأعراض ولكنه أبطأ منها عدوى ، وأقل منها انتشاراً ، وأهون منها ضراوة ، وأبسط منها مضاعفات ، وليس مثلها قدرا مقدورا على الطفل فى السنوات العشر الأولى من حياته ، والطفل الذى يعدى بها

وهو صغير قد يعدى بها إذا تعرض لعدواها وهو كبير . وكل أهمية الحصبة الألمانية مستمدة من أنها إذا أصابت حاملا فى الشهر الأول من الحمل فإن فرصة إصابة الجنين بالتشوه تكون خمسين فى المائة وإذا أصابتها فى الشهر الثانى من الحمل كانت فرصة إصابة الجنين بالتشوه خمسة وعشرين فى المائة ، وإذا أصابتها فى الشهر الثالث كانت الفرصة أقل وفى الشهر الرابع تهبط الفرصة إلى حوالى عشرة فى المائة ، أما بعد الشهر الرابع فالأغلب ألا يصاب الجنين بأية تشوهات .

بلاوى

وقد يشبه الحصبة الألمانية فى هذه الناحية مرض النكاف الوبائى ، وهو التهاب فيروسى يصيب الغدة اللعابية النكفية التى تحيط بأسفل الأذن من جميع الجهات . . إن هذا المرض يشبه الحصبة الألمانية من حيث إنه ليس شديد العدوى ، وإنه لا يصيب كافة الأطفال فى مرحلة الطفولة ، وإنه قليل المضاعفات فى الأطفال ، وإن الطفل الذى ينجو منه قد يصاب به على كبر ، وقد يورثه حينئذ كثيراً من مضاعفات الغدد الصماء ، ولا سيما الغدد الجنسية وغدة البنكرياس ذات العلاقة الوثيقة بمرض السكر . وقد يشبه الحصبة الألمانية كذلك فى أنه إذا أصاب حاملا فى الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل ، قد يعرض الجنين لبعض التشوهات .

لو . . حرف امتناع

ولو كنت مشرفاً على الصحة المدرسية فى هذه البلاد لوقفت كافة الإجراءات التى تتخذ فى المدارس الابتدائية بالذات ، لحماية الأطفال من عدوى الحصبة الألمانية والنكاف . إنهما مرضان يجب أن يشجع كافة أطفال المرحلة الابتدائية على الإصابة بهما فى هذه السن الآمنة من مضاعفات المرضين ولا سيما فى مدارس البنات .

متاعب الإشعاع

ثم إن الأمراض المعدية ليست وحدها سبباً فى إحداث تشوهات الجنين . إن تعريض الحامل فى الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل للإشعاع السينى ، سواء بقصد تشخيص الأمراض أو علاجها ، يمكن أن يؤدى هو الآخر إلى تشويه الجنين . وربما كان الإشعاع الذرى أسوأ إيذاء من الإشعاع السينى للجنين ، هذا بطبيعة الحال . إذا أعفى الحامل من الموت مع كل شىء يموت ، أو أعفاها من العقم إذا عاشت ، أو من التعاسة الأبدية فى كل الأحوال .

يحييها وهى رميم

وعلى أية حال فإن تشوهات القلب الرحمية إن كان بعضها لا يتفق مع الحياة ، فإن أكثرها ولاسيما الثقوب التى تبطئ فى الانسداد طيّعة للعلاج وقابلة للشفاء على مبضع الجراح . وحوالى ثمانين فى المائة من الأطفال المثقوبى القلوب ، والذين يعالجون بمبضع متخصص ،

ينالون الشفاء ، ويعودون إلى الحياة الطويلة المثمرة كأن لم يكن بين قلوبهم وبين الموت غزل سابق أو ودّ قديم .

إن الطفل الذى يلهث عند أقل مجهود . والطفل الأزرق اللون ، والطفل الذى فى قلبه لغط ، والطفل المتضخم القلب ، والطفل الضعيف النمو ، كل هؤلاء يجب أن يعرضوا على طبيب متخصص فى أمراض القلب ، فقد تكون فرصة الشفاء أمامهم — إذا كانوا مرضى بالتشوهات الرحمية فى القلب — أكبر وأضمن من فرصة الشفاء من الإسهال . والحامل التى يمرض فى بيتها طفل بالحصبة الألمانية أو النكاف الوبائى ، أو أى مرض فيروسى من أمراض الطفولة ، يجب أن تستشير طبيبها فإن « ترسانة » الطب فيها أسلحة تستطيع إنقاذ الحامل من الإصابة بهذه الأمراض ، فإن أصيبت بالمرض برغم ذلك فالخير أن تجهض منعًا « لوجع القلب » فى المستقبل ، وجع قلبها هى ، ووجع قلب الطفل البرىء إن الإجهاض فى هذه الحالة إجهاض شرعى ، ومرخص به مادامت الآراء الطبية متفقة على دواعيه .

١٦

خدعوك فقالوا :

إن صورة القاتل . . . تنطبع فى عين القتيل

إن العين البشرية تشبه آلة التصوير من بضعة وجوه ، فإن لها عدسة كعدستها ، وحجاباً حاجزاً للضوء مثلها ، وشبكية تشبه لوحها الحساس لالتقاط صور المرئيات ، ولكن الشبه بين الاثنين ينتهى عند هذه الحدود فصور المرئيات تقع على شبكية العين كما تقع على اللوح الحساس فى آلة التصوير ، ولكنها لا تنطبع عليها وإنما تنتقل منها كصور وهمية لا قيمة لها ولا حقيقة ، عن طريق الأعصاب ، فتصل إلى المخ بطريقة معقدة ، ويقوم المخ بترجمة الصورة الوهمية ، وتحميضها وتثبيتها ، واختزانها فى الذاكرة إن كانت من القيمة أو الروعة أو الجمال بحيث تستحق الاختزان فى سجل الذكريات .

فالمخ إذن هو الذى يرى المرئيات التى تقع على شبكية العين ، وليست العين إلا مجرد وسيط لنقل المرئيات .

وعلى هذا الأساس يكون انطباع صورة القاتل فى عين القتيل خرافة ضخمة ، ابتدعها مؤلفو القصص البوليسية ليضفوا على قصصهم شيئاً من الروعة ، وليحلوا مشاكلهم القصصية بطريقة يعيا عن توقعها واستنتاجها خيال القراء .

وقد انتشرت هذه الخرافة فى مثل هذه القصص منذ بداية هذا القرن ،

وكثر تداولها فى السوق ، وقيل إن القتيل يحتفظ فى شبكية عينه بصورة من وجه القاتل ، بالوضع والملامح التى شاعت فيه أثناء ارتكاب الجريمة . وأن أخذ صورة فوتوغرافية لعين القتيل ، وتكبيرها ، قد يكون هو الأثر الوحيد الذى يقودنا إلى الإمساك بتلابيب المجرم ، عندما يزيل كل بصمات أصابعه من أكر الأبواب ، ويتخذ كل الاحتياطات لإثبات وجوده فى مكان غير الذى ارتكبت فيه الجريمة ، وفى الوقت الذى ارتكبت فيه .

بل إنه فى إحدى الجرائم التاريخية المشهورة فى ذلك الحين ، وفى إنجلترا بالذات ، اشتد تنديد الجمهور برجال سكوتلانديارد ، عندما تبين فى أثناء المحاكمة أن البوليس لم يصور عين القتيل !

وتحت هذا الضغط قامت إدارة المباحث فى سكوتلانديارد بعمل تجارب واسعة النطاق ، لوضع هذه الخرافة فى ميزان الامتحان ، وراحت تصور أعين القتلى كلما حدثت جريمة من هذا القبيل ، وبآلات فوتوغرافية فى منتهى الدقة والكمال ، فلم يتبينوا أية صورة للقاتل فى جميع الأحوال .

إن شبكية العين . المكونة من غشاء عصبى شفاف فى الحياة ، كانت توجد فى كل مرة ، وقد فقدت شفافيتها تماماً بعد الموت ، ولم تعد تقرأ عليها أية قصة من تلك القصص الرائعة التى مرت بها طول الحياة .

والعين على أنها آية باهرة من آيات الله ، بارعة التكوين ، هائلة الإعجاز ، إلا أنها إذا شبهت بآلة التصوير المعروفة كانت من أتفه

آلات التصوير . ولقد قال ثقة من ثقات الآلات البصرية : « إنى لو بيعت لى آلة تصوير فوتوغرافية كالعين البشرية ، لرددتها إلى بائعها بعد أول تجربة . وطالبته بتعويض » .

فى كل آلة تصوير جيدة ، أو ميكروسكوب ، أو تلسكوب نتوقع أن نرى العدسات متناظرة تماماً فى الشكل والقوة ، ومبرأة من كل العيوب . وما هكذا الشأن فى عدسات العيون ، وما يقال عن العدسة يمكن أن يقال عن الحجاب الحاجز للضوء ، وعن الشبكية واللوح الحساس ومع ذلك فإن كل خلية من خلايا العين فيها من آيات العبقرية والإعجاز مالا يوجد عشر معشاره فى أى جهاز بصرى ابتدعه البشر ، وفى عملها من السحر والعظمة مالا يوجد له نظير فى أى تلسكوب أو ميكرسكوب لا لشىء إلا لأنها حية ، ولأنها من صنع الله .

إن هذه الآلة الفوتوغرافية على كمالها ووفائها بحاجات الرؤية للإنسان لا تستطيع أن ترسم صورة قاتل على عين قتيل ، لأنها لم تعد لهذا الغرض التافه ، وقد تفوقها فى هذه الناحية آلة تصوير لا يتعدى ثمنها عدة قروش !

١٧

خدعوك فقالوا :
إنْ دمك شربات

قد يتقاطر الشهد منك ظرفاً ولطفاً وخفة . ولكن دمك لا يمكن أن يتحول إلى « شربات » أبداً ، وإلا فطست فى الحال ، فإن قلبك يكف حينئذ عن الخفقان ، ويعيا تماماً عن دفع هذا الشراب اللزج الثقيل فى الشرايين ، إذ أنّ القلب خلق ليتعامل مع دم سائل خفيف لطيف ، لا مع سائل لزج كثيف ، ولو كان فى حلاوة « الشربات » .

إن دمك فى حالة الصحة يحتوى على مقدار صغير من السكر ، يكاد لا يتغير ، وإن كان يتذبذب علوًّا وانخفاضاً حول مائة ملليجرام فى كل مائة سنتيمتر مكعب من الدم ، وذلك عند قيامك من النوم .

ولما كان ذلك يبلغ حوالى خمسة لترات ، فمعنى ذلك أن كل ما فى دمك من السكر فى هذه اللحظة لا يزيد كثيراً على ملعقة شاى من السكر « السنترفيش » وهذا المقدار التافه لا يمكن بحال أن يحيل دمك إلى شربات ! !

وحتى بعد أن تتناول وجبة من وجبات طعامك ، وذلك هو الوقت الذى يرتفع فيه منسوب السكر فى الدم إلى أقصى ما يصل إليه فى حالة الصحة ، فإن قصارى ما يبلغه السكر فى دمك حينئذ لا يصل إلى مئتى ملليجرام فى كل مائة سنتيمتر مكعب من الدم ، أى أنه يصبح أقل من

ضعف ما كان فى حالة الجوع حين قيامك من النوم ، ولو ترجمنا هذه الزيادة إلى ملاعق ، لوجدنا أنها تمنحك ملعقة شاى أخرى فوق الملعقة التى كانت فى دمك من السكر فيصبح كل مافى دمك ملعقتى شاى من السكر ، وهو مقدار لا يكفى لتحلية فنجان من الشاى ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يجعل دمك شربات ، حتى لو كنت نجيب الريحانى أو أمين الهنيدى أو من شئت من نجوم الفكاهة ، وأصحاب الدم الموصوف بأنه دم شربات ...

حسبة برما

إنك تأكل فى الوجبة الواحدة من المواد النشوية والدهنية والزلالية ، وهى المواد القابلة للتحول فى الجسم إلى سكر ، ما قد يصل فى الوزن إلى كيلوجرام من السكر أو يزيد ، وهذا المقدار لا يخرج من جسمك كسكر فى حالة الصحة قط ، فإذا كان كل ما بقى منه فى الدم لا يزيد على ملعقتى شاى فأين ذهب باقيه ؟

إن الذى يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال هو البنكرياس ، أو البنقراس ، أو « الحلويات » وهو إحدى الغدد الصماء التى تفرز الهرمونات وهرمون البنقراس الأكبر هو الأنسولين المعروف .

إن مصنع الأنسولين لا يكاد يحس أثر زيادة السكر فى الدم حتى تدق فيه أجراس الخطر ، فينشط إلى إنتاج الأنسولين ، وصبه فى الدم بالمقدار الذى يتناسب وزيادة السكر فيه ، فيساعد الأنسولين على

دفع السكر الزائد إلى الأنسجة ، حيث يستعمل وقوداً هناك لإنتاج الحرارة اللازمة لتدفئة الجسم من جانب ، ولإمداده من جانب آخر بالطاقة والقدرة على العمل والحركة والنشاط ، وبدون الأنسولين لا يتم هذا الاحتراق ، وهو بعض ما يحدث فى مريض السكر أو الديابيط .

فإذا زاد من السكر شىء على حاجة الأنسجة إلى الوقود فإن الأنسولين يساعد على تحويل هذه الزيادة إلى نوع من النشا الحيوانى ، قابل للاختزان فى الكبد والعضلات ، كرصيد للسكر ، يسحب الجسم منه حاجته فى غير أوقات الطعام . . فإن بقى من السكر فضل بعد ذلك فإن الأنسولين يحيله إلى دهن ، كما يحدث فى الأشخاص النهمين ، الذين يزيد السكر فى طعامهم على حاجات الاحتراق والتخزين ، ويترتب هذا الدهن الكثيف تحت جلودهم ، وفى كروشهم ، وبين الأحشاء ، مضيفاً من الشحم تلالا إلى تلال . ! .

حلقة أخرى فى قصة السكر . .

هذا جزء من قصة السكر فى الدم وما يفعله فيه الأنسولين . . ولو ظل الأنسولين يفعل فعله هذا فى سكر الدم لما بقى من هذا السكر شىء . . حتى ملعقة الشاى البسيطة التى رأينا أنها فيه باستمرار ، كانت حرية أن تذوب هى الأخرى ، وتتركك مقطوع الصلة نهائياً بالشربات ! !

بيد أن كل نشاط فى الجسم له ضابط ، وضابط الأنسولين هرمون آخر من هرمونات الغدد الصماء . . .

نعم ، إن نقص منسوب السكر فى الدم يدفع مصنع الأنسولين إلى التوقف عن العمل ، حتى لا يرسل إلى الدم فيضاً جديداً من هذا الهرمون ، ولكن الجزء الذى يكون باقيًا منه فى الدم يكفى لو ترك على حل شعره لخلخلة منسوب السكر ، وما يؤدى إليه ذلك من شعور بالضعف ، والانهيار ، وارتعاش فى الأيدى ، واهتزاز فى الركب وغزارة فى العرق وخفقان فى القلب ، وهى الأعراض التى يعرفها كل مريض بالسكر ، يعالج بالأنسولين ، حين تزيد جرعة الدواء على الحد المقرر فتخفض منسوب السكر فى الدم عن مستواه الطبيعى المألوف . . .

إنها الأعراض التى من أجلها يحمل كل مريض من هذا النوع قطعة من الحلوى فى جيبه ليستعين بها على تعويض ما نقص من سكر الدم عن هذا المنسوب .

ولكيلا يحدث ذلك ينبرى هذا الهرمون الآخر لبقية الأنسولين الموجودة فى الدم والزائدة على الحاجة فيبطل عملها ، ويحفظ منسوب السكر فى الدم حيث ينبغى أن يكون ، أى ملعقة صغيرة من السكر لا يمكن أن تحيل دمك إلى شربات ، ولو كانت من السكر النبات ! !

الوجه الآخر للصورة

لكن ماذا يحدث لسكر الدم إذا تعطل إفراز الأنسولين أو تعرقل

لأى سبب من الأسباب ؟ .. وتعرقل تبعاً لذلك احتراقه فى الأنسجة واختزانه هناك ؟

يحدث مرض السكر أو الديابيط كما يسمى بطبيعة الحال . .

وفيه يرتفع منسوب السكر فى الدم ، من مائة ملليجرام إلى مائتين ، وربما إلى ثلثمائة أو أربعمائة ملليجرام فى كل مائة سنتيمتر مكعب فى الدم . . . . ومع ذلك ، فإن دمك لا يتحول حتى فى هذه الحالة إلى شربات ، وأن مقدار السكر الذى يكون فى الدم حينئذ لا يتعدى أربع ملاعق شاى . . إن الذى قد يتحول فى هذه الحالة إلى شربات قد يكون بول المريض ، لأن السكر الذى لا يحترق فى الأنسجة ولا يختزن ، تنفضه الكلى إلى الخارج مع البول ، مع مقدار كبير جداً من الماء ، وذلك عرض من أعراض مرض السكر . . ولكن ليس هذا كل شىء فى هذه الأعراض .

إن هذا المقدار الكبير من الماء الذى تستعمله الكلى فى إذابة هذا السكر ونفضه فى البول ، يحتاج إلى تعويض ، فيحس المريض عطشاً دائماً وهو عرض آخر من أعراض المرض . . . بول غزير وشرب ماء كثير .

قرابة كثير وذمة مفيش !

ثم إن الأنسجة التى فقدت جرايتها من الطعام والوقود تضمر وتضمحل ويصاب المريض الذى يكون بديناً فى العادة بالهزال ، ويفتر نشاطه

وتضعف قواه . وتقل مقاومته للأمراض . . .

ولكن هذا الهزال مع ذلك يصحبه شعور دائم بالجوع ، وشهوة دائمة إلى الأكل ، كأنما هى صرخة استغاثة من الأنسجة التى حرمت الطعام . . وهكذا يصبح المريض من كثرة الأكل ، وقلة بركته أشبه ما يكون بالقطط . . . « قراية كتير وذمة مافيش!! » كما يقولون . . .

وإذا لم يعالج المريض ، فقد يحدث له مع مرور الزمن كثير من المضاعفات التى يهدد بعضها الحياة .

قليلا من التواضع يا أخى

ولما كنت لا أتحدث هنا عن مرض السكر ، وإنما أتحدث عن دمك الشربات ، فإنى أترك السكر جانباً لألتمس منك قليلا من التواضع يا أخى ، وشيئاً من الاقتصاد فى التظرف ، فإن دمك مهما كنت حتى ولو كنت مريضاً بالسكر ، هيهات أن يكون «شربات» !

١٨

خدعوك فقالوا :

ضغط الدم يساوى السن مضافاً إلى مائة

ضغط الدم فى الكائن البشرى — وهو فى عنفوان صحته — لا يخضع لمقياس ثابت ؛ وهو يختلف فى شخص عنه فى آخر ، مع تكافؤ السن والبيئة والظروف ، ويتراوح تراوحاً طبيعياً بين هذا وذاك ؛ فى حدود يرمح فيها الحصان ، بل إنه يتذبذب بين العلو والهبوط ، فى الشخص الواحد ؛ وفى اليوم الواحد عدة مرات ، وهو أشبه ما يكون بأسعار القطن فى بورصة يعتادها كثير من عوامل التقلب . .

إنها بورصة تكرم أحياناً ، وتلؤم أحياناً ، وتستغل إلى حد ما جهلنا ببعض أركانها وبعض عملياتها التى لا تزال حتى اليوم متشحة بالظلام ، بيد أن حزب الصعود فيها مع ذلك يتألف من الوراثة المعتلة ، والشيخوخة المرهقة ؛ والبدانة ، والإفراط فى تلبية نداء النزوات ، والقلق العصبى والاندفاع وراء بروق المطامع بلا عقل ولا زمام . .

كما أن حزب النزول يتكون من المعيشة الهادئة ، والمزاج المعتدل ، والتوسط ؛ وإكرام الجسم بمنحه حقه الطبيعى فى النوم ، والرياضة والاسترخاء بعض ساعة فى وسط النهار ، والمتعة الصافية براحة الأسبوع وعطلة العام ، والنظر إلى الحياة بعين الفيلسوف الذى يجدها أحقر من أن يبكى على لبنها المسكوب ، وفوق هذا كله تجاهل ضغط الدم كلية ؛

ونسيانه إذا أمكن . وتجنب سؤال الطبيب — إذا فحصه — عن مقداره ومداه ! !

إن الوعى المرهف لأرقام ضغط الدم وتذبذبها الطبيعى ، كثيراً ما كان هو نفسه عاملا من عوامل الصعود فى هذه البورصة ؛ وكثيراً ما خلق مرضى بضغط الدم المرتفع ، من أشخاص كانوا خلقاء بالصحة والعافية والمتعة . او لم يندفعوا وراء دعوة الا نتحار الصامتة ، المنبعثة من جهاز الضغط الأخرس ، التى لا يسمعها ولا يلبيها إلا عبيده الأرقاء .

ولقد عرفت رجلا من أفذاذ هذا البلد ، كان يسجل ضغط دمه كل يوم ، فمازال به الجهاز الأخرس حتى قتله فى بضعة أعوام ؛ أحوج ما كانت إلى شمسه الساطعة سماء هذه البلاد .

لعله كان من الخير للبشرية لو لم يعرف هذا الجهاز ، الذى إن كان قد أعان الطبيب كثيراً على تشخيص وعلاج بعض الأمراض ، فإنه لسوء الحظ قد استعبد البشرية لعنصر مبتكر من عناصر القلق النفسانى ووضع على عاتقها حملا ثقيلا من المخاوف والأوهام .

فى سنة ١٧٠٨ أوثق الراهب الإنجليزى « ستيفن هيلز » مهرته وهى راقدة على ظهرها ، وأدخل فى شريان فخذها أنبوبة من النحاس ، وصلها بأنبوبة من الزجاج ، فوجد دم المهرة يرتفع فى الأنبوبة الزجاجية حتى يصل إلى علو ٢٥٠ مليمتراً ، فأدرك أن الدم فى شرايين الحيوان واقع تحت ضغط معين .

وبعد مائة وخمسين عاماً من هذا الاكتشاف كان الجراح الفرنسى

« فيفر » يوشك أن يبتر ذراع مريض ، فخطر له أن يعيد تجربة الراهب الإنجليزى على الذراع البشرية الموشكة أن تبتر فأدخل فى شريانها أنبوباً ، وصله بمانومتر زئبقى ، فوجد أن ضغط الدم فى الشريان يعادل مائة وعشرين مليمتراً من الزئبق .

وفى سنة ١٨٥٥ حاول طبيب ألمانى أن يقيس ضغط الدم البشرى فى الشرايين بإيجاد مقدار الضغط الكافى لوقف مسرى الدم فيها من الخارج ؛ دون حاجة إلى فتح الشريان ، ولكنه فشل فى إيجاد جهاز مناسب ، وإن كانت فكرته تحققت على يد « سيبيان ريفا روتشى » الإيطالى الذى اخترع جهازاً لقياس الضغط على أساس النظرية الأخيرة وهو الجهاز الذى يحمله اليوم كل طبيب فى حقيبته بتعديل طفيف ، وهو نفس الجهاز الذى منذ عرف ازدادت معارف الطبيب ، وازدادت معها متاعب البشر ، وازدادت مخاوفهم ، وازداد شعورهم بأشباح الموت الراقصة على مسرح الحياة .

عرفت مرة سيدة اشترت راحتها وسعادتها بقطع خط التليفون فى بيتها وما أحرى كثيراً منا بأن يشتروا من نفس السوق راحتهم وصحتهم عن طريق قطع صلتهم بجهاز ضغط الدم — أو بأرقامه على الأقل — التى تنعب فى بعض الأحيان نعيب البوم والغربان ! !

١٩

خدعوك فقالوا :

إن الدبابيس والإبر تسرى فى الجسم مع الدم

جاءنى صديق يلهث وفى وجهه قلق وفى صوته يوادر مأساة يقول لى إن ولده قد ابتلع دبوساً من دبابيس الشعر ، وإنه حائر لا يدرى ما يصنع فقد سمع عن الدبابيس والإبر التى تخترق الأمعاء وتسرى مع الدم وتذهب إلى القلب ، وتنغرس فيه ، ويكون من أمرها مالا بد أن يكون . . وضحكت لصديقى وقلت له إنه لا داعى للحيرة ولا للقلق ، وإن خير ما يصنع هو أن ينتظر مطمئناً نزول الدبوس من بطن ولده ، فإنه نازل لا محالة ، وفى الحالات النادرة جداً يتعرقل مرور مثل هذه الأجسام الغريبة فى المعدة والأمعاء بحكم أنها كبيرة الحجم ، أو مدببة أو ذات زوايا حادة تجعلها تنحشر انحشاراً فى بوغاز من بواغيز الأمعاء ، والأشعة كفيلة بإظهار مكانها دائماً ، وإزالتها يسيرة على الجراح فى أغلب الأحوال .

ثلاثة « بلاليع »

ثمة ثلاث طوائف من الناس تتعرض لابتلاع هذه الأقذاء : الأطفال والمجرمون والمجانين . وابتلاع هذه الأقذاء الغريبة لا يحدث دائماً عن طريق السهو أو الخطأ كما هو المتوقع ، ولكن الدوافع فيه

متعددة بتعدد نفسيات من يبتلعونها وأعمارهم ، فالفئة الأولى وهى فئة الأطفال الدافع فيها عادة هو الجهل التام بنتائج هذا العمل ، وأكثر ما يبتلعونه قطع النقود الصغيرة والدبابيس ، وقد يكون الدافع أحياناً إخفاء هذه الأشياء عن عيون الآباء إذا اتهموهم بسرقتها ، وقد يبتلعون بعض هذه الأقذاء مع الطعام عفواً . . وقد روى لى أحد الجراحين أن المرة الوحيدة التى دعى فيها إلى إسعاف طفل من هذا القبيل ، كان المصاب فيها طفلا فى الثامنة ، أكل قطعة كبيرة من اللحم — ولعله ازدردها ازدراداً ، وكان بها شظية حادة من العظم ، فمرت بسلام فى المرئ والمعدة والأمعاء ، ولكنها انحشرت فى آخر مرحلة من مراحل سفرها الطويل ، وأزيلت بجراحة بسيطة دون أن تنشأ منها أية أضرار .

أساتذة « البلع »

وأساتذة بلع الأجسام الغريبة هم الفئة الثانية : فئة المجرمين . . . وكثيراً ما يلجأ هؤلاء إلى هذه الوسيلة ليتخلصوا من المسروقات الثمينة التى يضبطون بها أو الأحجار الكريمة ، أو المخدرات . . . وفى الحالة الأخيرة — المخدرات — لا ينشأ الخطر منها لأنها أجسام غريبة داخل المعدة أو الأمعاء ، ولكن لأنها سموم قد يؤدى ابتلاعها إلى الموت من أقصر طريق . . . بيد أن بعض المجرمين من تجار المخدرات يخفيها فى أسطوانة معدنية صغيرة ويلحمها ثم يبتلعها إذا ضبط بها أو يخفيها فى الأمعاء ، اعتماداً على أنها ستمر بسلام ، ولكن الأقدار كثيراً ما تتدخل لغير

مصلحة الفاعل فى مثل هذه الظروف . ولقد روى لى الأستاذ الدكتور محمد عمارة أستاذ الطب الشرعى فى جامعة القاهرة مأساة شخص من هؤلاء الأشخاص ابتلع أسطوانة من هذه الأسطوانات ، فى أثناء ضبطه ، ولكن القرائن كانت قوية ضده ، فقبض عليه وقدم للمحاكمة . وفى أثناء الجلسة اتصل بأهله وأخذ منهم خمسة قطع نقود فضية من ذوات الخمسة القروش ، وعشرين قطعة من ذوات القرشين ، وساعة جيب صغيرة ، وابتلعها كلها ليستعملها فى السجن رشوة للحراس واتجاراً مع الزملاء فى السجائر والحلوى كما يحدث كثيراً فى هذه الظروف . ولقد كان خليقاً بأن يحقق كل ماأراد لولا تدخل الأقدار ؛ فقد مات المتهم فى اليوم التالى ، ووجدت هذه الأشياء فى بطنه أثناء التشريح ، ولكنها لم تكن مطلقاً سبب الوفاة ، وإنما كان السبب أن الأسطوانة التى فيها المخدرات موضوع الجريمة ، وكانت تحمل ثلاثين جراماً من الأفيون ، ذاب لحامها فى الأمعاء ، فتحرر بعض الأفيون منها وقضى عليه .

عين الطبيب

ولقد يلجأ بعض المجرمين للتخلص من حياة السجن بابتلاع موسى من أمواس الحلاقة أو مقدار كبير من الدبابيس ومنهم من يحاول بالطريقة نفسها أن يحتال على أطباء السجن لينقلوه إلى المستشفى ، فيتمتع ولو إلى حين ، بامتيازات المرضى فى الراحة والطعام ، بل إن بعضهم يحاول الوصول إلى الهدف نفسه ، ولكنه يخشى مغبة ابتلاع الدبابيس والأمواس

فيدعى أنه ابتلع شيئاً من ذلك ادعاء ، وعندما يؤخذ للأشعة يضع موسى فى جيبه ، أو ورقة دبابيس اعتماداً على أنها ستظهر فى الأشعة بجوار الأمعاء وتخدع الطبيب ، فإذا عملت له جراحة كان هذا هو عين المطلوب . ولقد سمعت أن أحد أساتذة الأشعة وقع له حادث من هذا القبيل مع أحد المجرمين ، ولكن موضع الدبابيس فى صورة الأشعة استلفت نظره فيه أنه بعيد عن الأمعاء . . فعرى السجين من ملابسه وصور له صورة أخرى فظهرت فيها الدبابيس ولكن فى موضع آخر ، فلما صور المجرم صورة جانبية اتضح أن الدبابيس فى جدار البطن ولا علاقة لها ألبتة بالأمعاء . وبالبحث وجد أن المجرم كان مستعداً لكل هذه الاحتمالات فلما خلع ملابسه غرس الدبيس غرساً فى جلد ظهره ليبعدها عن عين الطبيب !

الجنون فنون

أما المجانين فلهم فى هذا الباب نصيب كبير . . وكثيراً ما توجد فى معدات بعضهم بعد الوفاة العارضة ملاعق وشوك وسكاكين وقطع من الزلط والزجاج وأطقم أسنان ضاقت عنها بوابة المعدة فظلت فيها شهوراً أو سنين ، قبل الوفاة . . ولقد وجد ذات مرة فى بطن أحدهم « ورشة » مكونة من أربع وثلاثين قطعة منها مسامير ، وصواميل ومفاتيح ومفكات ، ولقد عرفت فى الريف رجلا أبله ابتلع ذات يوم عشر قطع من

« القروش الحردة » التى كانت تستعمل فى النقد قديماً ، وكان حجمها مثل حجم الريال الفضى المعروف ، ومرت كلها بسلام !

الإبر القاتلة

لقد كان الاعتقاد فى الإبر والدبابيس قديماً أنها أجسام طوافة فى الجسم تنتقل حرة من مكان إلى مكان ، بحكم حركة العضلات . . ولكن الحالات النادرة جداً التى وجدت فيها إبر فى أماكن خطرة يمكن عدها على الأصابع . . وأكثر ما يحدث مثل هذه الإبر — ولا سيما إبر الحقن التى تنكسر فى موضع الحقن ، ولم تكن ملوثة بميكروبات — أن تظل فى مكانها أو تتحرك حركة ضئيلة فى محيط صغير . ولقد روى لى من لا أشك فى روايته أن المرحوم الدكتور على إبراهيم انتقل إلى رحمة الله وفى جسده إبرة حقنة مقصوفة ظلت فيه أكثر من عشرة أعوام . . ولقد انكسرت فى رأسى ذات يوم إبرة حقنة غليظة فى أثناء جراحة صغيرة ولم أعرف ذلك إلا بعد بضعة أشهر عندما أحسست بشىء يخزنى فى داخل خدى كلما تثاءبت أو ضحكت . . ولما طال الأمر واشتدت مشاكسة هذا الواخز السخيف ، صورت خدى بالأشعة فوجدت فيه إبرة غليظة طولها ثلاثة سنتيمترات !

٢٠

خدعوك فقالوا :
إن حمل خمسة أشهر يمكن أن يعيش !

الناس مولعون بأخبار العجائب . . . كل عجيبة تولد وتكبر وتترعرع فى الأذهان من طول التكرار وتهويل المبالغات ، ثم تنطفئ زوبعتها بعد حين ، لأن الناس قلما يصبرون على طعام ، وسرعان ما تظهر عجيبة أخرى فتنزوى الأولى ، وتتقهقر مغلوبة على أمرها إلى زاوية من زوايا النسيان .

ولكن الويل للعجيبة التى تنسى هذا التسلسل الواجب فى التاريخ الطبيعى للعجائب ، فتولد وسابقتها مازالت جالسة فى عنفوان مجدها على العرش ، والتاج على رأسها يتلألأ بما يضاف إليه كل يوم من نفائس الواقع أو ذخائر المبالغات .

من هذه العجائب التعسة الحظ عجيبة ولدت واهتمام الناس موزع بين أمريكا وبين جنوبى أفريقيا ، يتابعون باهتمامهم معجزات زرع القلوب الشابة فى صدور شيوخ انهارت قلوبهم .

ولدت هذه العجيبة المسكينة فى هذا الزحام ، فلم تجد قابلة ترعاها ، ولا حاضنة توطئ لها مهد البقاء والنماء .

فى المشرحة

وتبين من تشريح جثة هذه العجيبة السيئة الحظ أن سيدة من باب

الشعرية ـ والفاتحة لسيدى الشعرانى ـ وضعت ثلاثة توائم ، وأن السيدة اسمها كذا ، وأن توائمها الثلاثة فى صحة جيدة ، وأن من قام بعملية التوليد هم ـ بالأمارة ! ـ أطباء المستشفى فلان وفلان وفلان . .

ولا بد أن كل توأم حمل اسم طبيب من الفرسان الثلاثة المولدين !

إن العجيبة ليست فى أن هذه السيدة التى من باب الشعرية وضعت ثلاثة توائم . . . كلا . وليست العجيبة فى أن التوائم الثلاثة يعيشون فى صحة جيدة . .

لا تثوى العجيبة هنا ولا هناك ، ولكن مثواها فى أن الحمل الذى أسفر عن هذه الذرية الصالحة لم تزد مدته على خمسة أشهر ، وهى مدة للحمل المنجب لا تقبلها ذمة أى طب فى العالم ، ولا تهضمها معارف أى طبيب لا فى مستشفى باب الشعرية ولا فى مستشفى واق الواق . .

إن من المعارف العامة أن الجنين الذى يولد قبل استكمال الشهر السادس من الحمل غير قابل للحياة ، ولا حتى بالعكاكيز .

إن مواليد نهاية الشهر السادس نفسه يولدون فى العادة موتى ، أو يولدون أحياء ولكن شعلة الحياة تنطفئ فيهم على الفور دون أن يتسع لهم الوقت لتسجيل أية معجزات ، أو الاشتراك فى مواكبها ، أو وضع أكاليل الغار على رءوس هذا أو ذاك من الأطباء ! !

دبيب الحياة

نعم ، إن النطفة التى تحولت إلى علقة ، ثم مضغة خلال الأشهر

الأولى من الحمل ، تدب فيها الحياة وهى تتخلق . . . فيخفق قلب الجنين فى منتصف الشهر الرابع ، وحوالى نفس الوقت يرتكض الجنين فى بطن أمه تلك الارتكاضة الحلوة التى تملأ سماء الأم بالمنى والأحلام . .

إن الجنين حى . . نعم ! ولكن حياته حينئذ تكون حياة الكائن المعتمد على سواه ، وليست حياة المخلوق المستقل الذى يستطيع إذا ولد أن يجاهد فى سبيل البقاء . .

إن الصلة التى تربطه بأمه يومئذ لا تكاد تنقطع حتى يموت . . إنه غير قادر على مواجهة جو الحياة القاسى ، ولا هو مسلح بأى سلاح لهذا الجهاد الشاق . .

إنما تبدأ فرص الحياة فى الظهور أمام المواود الخديج — وهو المواود قبل الأوان — حين يكمل الشهر السابع من حياته الرحمية . .

فإذا بلغ الشهر الثامن كانت هذه الفرص أقوى وأكبر . .

إن كل يوم يضاف إلى العمر الرحمى للجنين بعد الشهر السابع ، يزيد من فرص الحياة أمام المواود ، ويضيف إلى رصيد الأمل فى حياته — إذا تساوت الظروف — ويسجل له نقطة فى حساب البقاء .

مسألة وزن

مع ذلك فإن المواود الخديج حتى لو كان عمره سبعة أشهر أو ثمانية لا توجد لديه فرصة للبقاء إذا قل وزنه عن كيلو جرام واحد ، مقارناً بالكيلوجرامات الثلاثة والنصف التى يزنها الجنين المكتمل الحمل والصحة .

فإذا زاد وزنه على كيلو جرامين ونقص عن الثلاثة احتاج لكى يعيش إلى رعاية خاصة من الأم تحميه من عوادى الجو . ومن أخطاء التغذية ، ومن قذارة المحيط . .

أما إذا كان بين بين ، فإن حياته تصبح مرهونة بالرعاية الطبية التى تتولاه بالعناية الدائمة .

هول القيامة

وأيًّا كان الأمر فإن حكاية توائم باب الشعرية الثلاثة وتلوينها بهذه الصبغة الزائفة من أصباغ الأعاجيب ، قد صادفها سوء حظ كبير حين ولدت فى زحمة الأحداث ، أحداث القلوب المزروعة من جانب ، وأحداث ضيافة الرئيس جونسون للخواجة أشكول من جانب أخر ، وقصة غرامهما العجيبة التى فاقت قصة غرام دليلة وشمشون .

لقد ولدت لسوء حظها ميتة .

وانطبق عليها قول شوقى :

من مات فى هول القيامة لم يجد

قدماً تشيع أو حفاوة ساعى ! !